

## الباب الأول

### بواكير الشخصية المصرية فى الأدب العربى

- \* مسيرة الأدب العربى فى مصر .
- \* ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الشعر .
- \* ظهور بواكير الشخصية المصرية فى النثر .



## الفصل الأول

### مسيرة الأدب العربي بمصر

مصر واحدة من الأمم القليلة التي تخلت نهائيا عن لغاتها القومية قبل الإسلام لتحضن اللغة العربية ، لا باعتبارها لغة الفاتح المنتصر ، فلقد غزاها الرومان من قبل ولم تصبح اللغة اللاتينية لغة المصريين ، ولا باعتبارها لغة الأدب والشعر والحكم والأمثال فالشخصية المصرية لا تجنبها هذه الأمور ولم تبدع فيها يوما من الأيام إبداعها في مجالات أخرى . وإنما أقبلت مصر على اللغة العربية إقبالها على الإسلام ومحاولة فهمه ، ثم التعمق فيه تعمقا يلائم طبيعتها التي وضحت معالمها سلفا (١)

ولقد سار التعريب في مصر وبئد الخطى ولكنه كان راسخا رسوخ الطود ينتقل من أطراف الصحارى ليتغلغل في أعماق المدن والقرى عازما على ألا يبقى معه غريم أو منافس حتى إذا ما استوى على عوده ، وتمكنت جنوره من الارتواء ذاتيا من عروق النيل الممتدة في باطن أرض مصر أينعت ثمارا مختلفة الألوان والمذاق .

ومصر في موقفها من التعريب تختلف اختلافا جوهريا عن إيران والهند وتركيا كما تختلف بعض الاختلاف مع بلدان الشمال الأفريقي فلم يعض على تعريب كل من مصر وإيران سوى عدة قرون حتى طالعنا شاعر الوطنية الإيراني « الفردوسي » بملحمته « الشهنامة » منظومة باللغة الإيرانية الحديثة . وفي الوقت نفسه كان أقباط مصر يتخلون عن القبطية ويستبدلونها بالعربية في شئونهم اليومية بل والدينية أيضا . وقد شرع بعضهم في كتابة تاريخ القبط وبعد أن كتب القديس « شنودة » مؤلفاته باللغة القبطية عمد إلى ترجمتها إلى اللغة العربية ليتسنى للأقباط قراءتها . وفي القرن الرابع الهجري كان المثقف المصري يفتخر بمعرفته اللغة القبطية . وأصبحت القبطية شبه غريبة في موطنها الأصلي . فالمسعودي يلتقى

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٥٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ص ٢١ .

فى مصر ببعض علمائها من القبط ويسألهم عن معنى كلمة « فرعون » فلم يخبره أحد (١) .  
وهكذا ظلت القبطية تتفوق أمام انتشار اللغة العربية حتى قصر استعمالها على الأديرة (٢) .  
وفى القرن العشرين وبعد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرناً على تعريب الشمال الأفرىقى  
ما تزال قرى باكملها فى منطقة بلاد « القبائل » تتحدث باللغة البربرية مع أن جميع أهلها  
مسلمون ومعظم رجالها يعرفون اللغة العربية أما نساؤها فقليل منهن من يعرفها . إن علاقة  
الشخصية المصرية باللسان العربى تنبىء عن بعض مقومات شخصيتها وأهمها تأثير البيئة  
الطبيعية والزعة الدينية .

ولقد تناول الباحثون فيما تناولوه من دراسة مصر القديمة الحديث عن شخصيتها لأدبية  
وسجلوا لها أعمالاً مختلفة منها الأساطير كأسطورة ( إيزيس وتوابعها ) ، و( بين هلاك البشرية  
وإنقاذها ) ومنها القصص كقصة ( سفرو والحكاء ) ، و( نجاه الملاح ) و( سنوحى ) ومنها  
أدب النصائح التى كتبها ( بتاح حتب ) و( أمتحويس ) ، و( عنخ شاشنقى ) ، ومنها الشعر  
الغنائى فى المديح والهجاء والأناشيد الدينية والتعليمية والغزل والغناء .

وقد اتصفت هذه الأعمال بصنقها فى التعبير عن الروح المصرية وتمثيلها لخصائص  
البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وتشابه بعض ملامحها مع غيرها من آداب الأمم القديمة ، فى  
وضوح التأثير البنينى ، وكثرة التكرار وصعوبة التفريق بين الأسلوب الشعرى والأسلوب النثرى ،  
وتشابه بعض صورها مع غيرها فى التعبير عن الفرائز والعواطف الإنسانية (٣)

ومهما تكن قيمة هذه الأعمال فإنها لم تلعب دوراً هاماً فى تألق الشخصية المصرية بين  
الأمم القديمة ، ولم يكن لها تأثير ذو قيمة فى الآداب العالمية مثلما كان لبعض الفنون الأخرى  
كفن العمارة المصرية القديمة وما يشير إليه من دلالات فكرية وعلمية واجتماعية . فأتين شهرة ما  
أنتجته مصر من محاولات فى أدب الفروسية خلال الحكم الرومانى (٤) ، إذا قارناه بما أنتجه  
الشعراء الفوارس الجاهليون ؟ وما قيمة الأدب النسائى الذى سجلته مارية وصيفة ، أرماتوسة

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى . د . محمود مصطفى ص ٣٠ .

(٢) تاريخ الشرق الأدنى القديم . د عبد العزيز صالح . ص ٣٢٥ .

راجع : القصص والحكم والتأملات فى أدب الفراعنة : ج ١ سليم حمن . القاهرة ١٩٦٥ م .

(٣) مصر من الأسكندرية الأكبر حتى الفتح العربى . هـ . أيدرس بل . ص ٢٢ . وما بعدها .

(٤) وحى القلم . مصطفى صادق الرافعى ص ١٩ وما بعدها . ج ١ ط ٨ . بيروت .

التعبير عن مشاعر الأنوثة - أين قيمته وشهرته إذا قورن بآثار الشاعرة العربية الخنساء التي عاصرت الشاعرة المصرية ، وإن اختلفت البيئتان واللغتان ، ثم أين ما خلفته مصر القديمة من أدب له قيمته العالمية إذا ما قورن بما خلفته أمة عريقة كالأغريق التي عبرت عن شخصيتها الأدبية بأعمال خالدة كإلياذة « هوميروس » وغيرها ؟

حقاً إن ما وصلنا من الأدب المصرى القديم قليل بالنسبة لما كان ينتظر من أمة عريقة بلغت شأواً بعيداً فى التطور ، ومع ذلك يبقى هذا القليل ضئيل القيمة والشهرة عند مقارنته بغيره من الفنون المصرية ، أو مقارنته بغيره من آداب بعض الأمم القديمة . وإن كان بعض الباحثين يؤكد أصالة هذا الأدب وصدقه فى تمثيل الروح المصرية (١) .

ويكتسى الأدب المصرى ثوباً جديداً بدخوله مرحلة التعريب ، شأنه فى ذلك شأن مختلف ألوان أنشطة الحياة المصرية ، واللغة العربية كما هو معروف عنها - لغة فصاحة وأدب وشعر ، وربما كانت تلك أهم مميزاتها ولا سيما فى الفترة التى بدأت عندها عملية تعريب مصر ، فلم تكن اللغة العربية فى تلك المرحلة لغة فنون وعلوم ، ولم يكن قد تحرك فيها اللسان الأجنبى فيفسد فصاحتها . ومع ذلك فإن الشخصية المصرية لم تتجذب إلى هذا الجانب الحضارى بقدر انجذابها إلى جوانب أخرى وبذلك ظل أدبها العربى أقل شأنًا من أدب أمة أخرى مستعربة كالفرس مثلاً ، وأقل شأنًا من شخصيتها العلمية التى قاقت غيرها فى ميدان العلوم الدينية ، كال تفسير والقراءات والفقه والحديث وعلوم التاريخ والقصص ، والسير ، وأثمرت فيها ثمرات ما زالت شاهدة على تفوقها فى الوقت الذى لها مثل هذه الآثار فى الحياة الأدبية .

وقد مر الأدب العربى بمصر بأطوار عدة . لكن مسيرته فى عصوره كانت مختلفة تماماً عن مسيرة الأدب العربى فى غيرها من الأقطار الأخرى من حيث القوة والضعف ، وما يتبع ذلك من دلالة الأدب على الشخصية والتعبير عن متطلبات البيئة والعصر والإنسان . ولقد تأخر ظهور الأدب العربى بمصر تأخراً ملحوظاً إذا قورن بظهوره فى مصر من الأقطار الأخرى وذلك للأسباب التالية :

أولاً : لم يكن للبيئة المصرية سابق عهد بمعرفة اللغة العربية أو استخدامها قبل الفتح العربى وظلت فترة غير قصيرة عاجزة عن التعبير بهذه اللغة عن متطلباتها ، فضلاً عن إنشائها

(١) سند باد مصرى : د . حسين فوزى ص ٢٨٦ .

أدبياً يصور شخصيتها . ومصر من هذه الناحية تختلف عن الشام والعراق ، فقد كانت باديتاهما عربية اللسان قبل الإسلام مما أعانتهما على الانطلاق اللغوي في فترة مبكرة من الفتح العربي . ومعنى هذا أن بيئة مصر اللغوية لم تكن قد تهيأت بعد لإنتاج الأدب العربي إنتاجاً يعبر عن سماتها . وإزدهار الأدب في جميع الأمم وعلى مر العصور يتوقف على صلته بجمهوره ، فكلما وجد الأدب صداه في البيئة التي ولد فيها نما وازدهر وكلما ابتعد جمهوره عنه انعزل واضمحل وفنى .

**ثانياً :** ركزت مصر اهتماماً ملحوظاً على الجانب العلمي في الثقافة الإسلامية ، منذ بداية تعريبها ، وقد أشرت إلى أن العلوم الدينية قريبة من طبع الشخصية المصرية ، ولذلك تكيفت معها وأبدعت فيها إبداعاً مبكراً . ومن ثم كان النثر العلمي أسبق ظهوراً في البيئة المصرية من النثر الأدبي ومن الشعر أيضاً . ولأمر ما ، كانت نهضة النثر العلمي في مصر سابقة على غيرها من فنون القول في النهضة العربية الحديثة ، بينما كانت نهضة النثر الأدبي هي السابقة على غيرها في لبنان :

**ثالثاً :** لم يتوفر لمصر نوع من الاستقلال الذاتي أو الاستقرار السياسي أثناء فترة الولاة الذين كانوا يتناوبون الحكم فترات وجيزة ، لم يتمكنوا من تأسيس بيئة أدبية كسائر البيئات التي تكونت في ظل استقرار الأوضاع السياسية (١) . وإن كان نصيب الشخصية الوطنية قليلاً ، في انتاج هذه البيئات لارتباط الأدباء عادة بأشخاص معينين هم نواب الجاه والسلطان في النوبة ، لكن هذا الارتباط لا يعوق وضوح الشخصية الإقليمية في إنتاجهم ، ولا يخفى نور تشجيع الحكام في نمو الأدب وازدهاره خاصة « الشعر العربي ، وفي كل عصوره قبل العصر الحديث . ولكن هذه البيئات أخذت طريقها إلى التحول مع بداية الحكم الطولوني لمصر سنة ٢٥٤ هـ ، وجدت عوامل أخرى كانت وراء ظهور بواكير الشخصية المصرية في الأدب العربي ، وأهم هذه العوامل :

١ - وضوح الشخصية السياسية على أثر استقلالها عن الخلافة العباسية على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ ثم على أيدي الإخشيديين سنة ٢٢٢ هـ .

(١) لم يستقر الولاة في مصر فترات طويلة خاصة في العصر العباسي فقد حدث أن تولى حكم البلاد المصرية ثلاثة ولاة في عام واحد ( ٢١٩ هـ ) وبلغ عدد الذين تولوا مصر في خلافة « هارون الرشيد » وحده نحو اثنين وعشرين والياً .

ولم تكن مصر وحدها هي النواة التي استقلت عن الإمبراطورية العباسية ، فقد انفصلت دولة الأمويين في الأندلس والبريهيين في فارس ، والأدارسة والأغالبة في المغرب . وتبع هذا الانفصال تنافس شديد بين حكام هذه الإمارات وحاولت كل دولة أن تحنو حنو بغداد في ذبوع شهرتها وارتفاع مكانتها .

وكان الأدب بصورة عامة والشعر على وجه الخصوص أكبر وسائل الإعلان في تلك العصور ، وأراد الطولونيون منافسة العباسيين ، في الإغداق على الشعراء وتقريب العلماء ، وطمعوا في أن يجعلوا من مدينة « القطائع » عاصمتهم بمصر مدينة يشيد بها التاريخ كما أشاد ببغداد فبدلوا العطاء وأكثروا من الهدايا ، وكوتوا حولهم بلاطاً أدبياً أشبه ما يكون ببلاط العباسيين ، فأتت هذه الحياة في مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً ، واجتمع في مصر عدد كبير من الشعراء حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في عددهم إذ نقل عنه المقرئ أنه قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون . قال فإذا كان أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكيف يكون شعرهم ؟ .

ومهما يكن من أمر عدد شعراء الطولونيين ، فقد صوروا جوانب من الحياة المصرية تلقى أضواء على الشخصية المصرية في أدب هذه الفترة .

وربما فاق اهتمام الطولونيين بالنتج اهتمامهم بالشعر ، فأحمد بن طولون ، كما يقول القلقشندي : أول من أخذ في ترتيب الملك وإقامة شعاع السلطنة بالديار المصرية ، ولما شملخ سلطانه وارتفع بها شأنه ، وأخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتب والولايات (١) . وأثر ابن طولون أن يتخذ كتابه من المصريين ، وإن لم يبلغوا مبلغ غيرهم في فن الكتابة وكانت فلسفته في ذلك ، إن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له في ذلك البلد ، أمور صالحة ، منها أن يكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتي (٢) . وقد أدت فلسفة ابن طولون ومن سلك دربه إلى إتاحة الفرصة أمام

(١) صبح الأعشى ج١ ص ٢٨ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون ، لأبي عبد الله البلوي . تحقيق محمد كردغلي . ص ١٥ ، دمشق ١٣٥٨ هـ .

المصريين أن يمارسوا هذا الفن في أكبر مسارحه ، فأبدعوا فيه في وقت مبكر ، وظهر بعض الكتاب المصريين أيام الطولونيين من أمثال جعفر بن عبد الغفار .

٢ - ظهور جيل من المصريين تشرب الحياة المصرية وأتقن اللغة العربية ، في مدرسة الأدب التي أنشأها كبار شعراء العربية وأدبائها الواقفين إلى مصر الزائرين والمقيمين خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ، كما كان لأحفاد كاتب العربية المعروف « عبد الحميد بن يحيى - كاتب مروان بن محمد آخر خليفة أموى - دور في تنشيط الكتابة الديوانية بمصر حيث استقروا بها . ويرز من بينهم كتاب من أمثال الحسن بن محمد أبي المهاجر واخوته ، على ، وأبو القاسم ، وأبو عيسى وكلهم من نسل عبد الحميد الكاتب الذين نشئوا بمصر فتشربوا الحياة المصرية وعادوا منها ، (١) .

٣ - وهناك عامل هام له أثره في ظهور الشخصية المصرية في الأدب العربي ، وهو أن ملامح البيئات الإقليمية أخذت طريقها إلى الظهور والتأثير في الشعر العربي بصورة عامة ، وإن اختلف وضوح تأثير بعض البيئات عن بعضها الآخر .

وفي القرن الرابع الهجرى بلغت النهضة الإسلامية أوج عظمتها ، وأخذت مصر موضع الصدارة في العالم الإسلامي بما تهيأ لها من أسباب داخلية وخارجية ، إذ بدأت دولة الفوادم قنية في مصر واستطاعت أن تضم إليها بلدانا من المشرق والغرب ، وفي الوقت نفسه كانت هبة الخلافة العباسية في بغداد تضعف شيئاً فشيئاً ، وظهر خطر الصليبيين يهدد المنطقة العربية بأسرها . وأخذت مصر بحكم الموقع والموضع والخصائص البشرية تتحمل شرف الريادة في الدفاع ، وتجمعت بكل طاقاتها خلف المصلحين من زعماء المسلمين . وكانت اللغة العربية في مصر قد استقرت لغة تعامل وتعبير عن متطلبات الحياة بمختلف شئونها وتجمعت عوامل أدت إلى نبوغ الأنبياء المصريين ، فأخذوا يورهم في تصوير حياتهم عاكسين في إنتاجهم مؤثرات بيئتهم بما انطبع في أذهان كل منهم . وما كان لهم أن يتفقوا في نظرتهم نحو الأشياء ، وما كان للأحداث أن توزع آثارها بقدر واحد على جميع الناس . ومع ذلك فهناك تيارات واتجاهات تجمع الشتيت حولها تقارياً أو تافراً ، وتعكس لنا بذلك سمات الطابع القومي أو الشخصية بالمفهوم الجماعي .

(١) الوزراء والكتاب ، لآبي عبدالله محمد الجهشياري ط ١ القاهرة ١٩٣٨ ص ٨٢ .

وإذا كان العصر الفاطمي هو العصر الذهبي للأدب العربي بمصر ، فإن عصر الأيوبيين كان امتداداً لهذا الازدهار أو العصر الفضي للأدب كما أطلق عليه المستشرق الإنجليزي ( جب ) GIBB .

وقد تشابكت عدة عوامل محلية وعالمية وانصهرت في البيئة المصرية ، لتصبح أشعة تلقى أضواؤها على الشخصية المصرية .

## وأهم هذه العوامل :

أولاً : تمييز الطابع المصري :

مضت أربعة قرون قبل هذه المرحلة ، تصارعت فيها ظواهر وكائنات أسفرت عن وجود شعب عربي مصري له أسلوبه في حياته ، وله عادات وتقاليد ونظم ولغة استقرت عليها الحياة في هذه البيئة بعد شوط طويل .

وهذه مصر في القرن السادس الهجري ، كما يصورها « أبو صلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي » وقد زارها في أواخر العصر الفاطمي : « أخلط من الناس مختلفة الأصناف بين قبط وروم وأكراد وديلم وحيشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس . (١) جاوا للتجارة أو الحج أو طلب العلم ، أو تولى المناصب ، أو الخدمة في الجيش أو غير ذلك ، ولكنهم جميعاً مصريون مصرتهم مصر بما لديها من إمكانيات سبق الحديث عنها ، وأصبح السابق من الوافدين قدوة لللاحق في التمصير . ويكفي أن أضرب لذلك مثالا عبرت فيه إرادة التمصير عن وجودها بصورة بيّنة ، وهو أن خلفاء مصر الفاطميين سموا بـ ( المصريين ) . وأصبح هذا الاسم مستعملاً ومعروفاً للدلالة على الخلفاء الفاطميين . فما هو « العماد الأصفهاني » يتحدث عن أحد الشعراء فيقول : وما أكمله لولا أنه من مداح المصري » (٢) .

ثانياً : قوة النفوذ السياسي :

أخذت قوة هذا النفوذ شكل تمدد جغرافي لحدود مصر السياسية سواء في العصر الفاطمي أو الأيوبي ، فالقاهرة الفاطمية عاصمة لبلدان الشام والحجاز وبعض أجزاء الجزيرة العربية والشمال الإفريقي . ولئن تقلصت هذه الحدود في أواخر الحكم الفاطمي وفقدت القاهرة

(١) الرسالة المصرية . لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ، ص ٢٢ .

(٢) الخريدة ، ص ٥ .

سيطرتها على جزء من توابعها ، فلقد شمردت عن ساعديها الفتيتين مع احتفائها بالبطل الأيوبي ، وراحت تبسط يدها من جديد على بلدان انتزعتها من أيدي الصليبيين ، أو المسلمين المستضعفين ، وكتب العماد الأصفهاني رسالة على لسان « نور الدين » وبعثها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله يخبره بإحياء حركة السنة ومواجهة الأعداء وامتداد سلطان مصر إلى بلاد النوبة وجزء من الشمال الأفريقي فيقول : « من جملة حسنات هذه الأيام الزهراء ماتسنى في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة وللوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل الإسلامية في العصور الخالية وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها وتحكموا في محكم معاقلها وحصونها حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من أسواق بعنقاء مغرب » (١) .

وادركت مصر أن مسيرة النضال نحو تحرير الأرض العربية من الصليبيين لن تكتمل إلا بسيطرتها على الشام ، فاتجهت نية صلاح الدين إلى ضمها ، وكانت ما تزال تحت أيدي الزنكيين الذين تربى صلاح الدين في كنفهم وأتى مصر موفداً من قبلهم ، فبعث إليه « ابن المقدم » رسالة يقبح له نيته في الاستيلاء على الشام ، فأجابه صلاح الدين على لسان القاضي الفاضل : « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الأتابكي أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر أثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالجملة إنا في واد ، والظانون بنا ظن السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد ولن يبعثنا عنه مراد ولا يقال من طلب الصلاح إنك قادح ، ولن ألقى السلاح إنك جارح » (٢) .

ومضت مصر إلى غايتها وبسطت نفوذها على الشام لتوحد راية الإسلام في أشرف نضال وراح أبناء البيت الأيوبي يوسعون حدود مصر السياسية ، فهذا عمارة اليمن يحدث صديقه وممدوحه ( الملك المعتصم شمس الدولة ) أخا صلاح الدين على السير إلى اليمن (٣) ليستولى عليها قائلاً :

(١) كتاب الروضتين ، لأبي شامة ، ج ١ ، ص ٥٤٧ .

(٢) كتاب الروضتين . لأبي شامة ، ج ١ ، ص ٥٩٧ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٩٦ .

ضاق الصعیدُ على جیادك بعدما  
والقربُ واليمنُ القصيدةُ أهلهُ  
والسيفُ يلمعُ في الخواطرِ بريقه  
فإلى متى أيدي الكمأةِ معوقةُ  
ومعاطفُ الخيلِ الخفافِ إلى العدى  
أفلا رميتَ بها الغلاةَ مجرداً  
ضمنتَ صعادك فتحَ كلِّ صعيدِ  
من خوفهم في قائمٍ وحصيدِ  
بالسيفِ من عدنٍ وأرضِ زبيدِ  
عن نشرِ ألويةٍ ونشرِ بُنودِ  
تشكو خفافاً أيسدةً ولبودِ  
عزماً تسدُّ به عِراضُ البيدِ (١)

وتم للشاعر عمارة اليمنى وممدوحه ما أراد . قال العماد ،

« توجه تور انشاء ، أكبر إخوة صلاح الدين ، إلى اليمن فملكها . وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمنى شاعر القصر ، وكان كثير المدح لتور انشاء ، فتجهز وسار إلى مكة ثم زبيد فملكها وبيض على الخارجى بها ، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها واستتاب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي ، وفتح حصن « تعز » وغيره من القلاع ، ففتح إقليما ومنح ملكاً عظيماً ، واقترع بكرأ وأشيع ذكراً ... »

قلت : فمن جملة شعره في ذلك قوله في القصيدة التي أولها :

العلمُ مذ كان محتاجاً إلى العَلْمِ  
وشفرةُ السيفِ تستغنى عن القَمِّ  
كم تترك البيضَ في الأجنانِ ظامنةُ  
إلى المواردِ في الأعناقِ والقَمِّ  
أمامك الفتحُ من شامٍ ومن يمنٍ  
فلا تردُّ روعسَ الخيلِ بالجَمِّ  
فعمكُ الملكُ المنصورُ سومتها  
من الفراتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ  
فاخليقُ لنفسك ملكاً لا تضافُ به  
إلى سواك ، وأودِ النارَ في العلمِ (٢)

وهكذا ، فرضت شخصية مصر السياسية والحربية وجودها بين أشقائها المسلمين لتخوض قتالا نشبت فيه وجودها بين الأصدقاء والأعداء . وربما أعانها على بلوغها هذه المكانة السياسية ، ما أصاب الخلافة العباسية في بغداد من ضعف جعلها مطمع الطامعين ، بعد أن استبد رجال القصر من السلاجقة الأتراك بالحكم ، وأخذت مكانة الخلفاء تزداد سوماً ، ولم يعد

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢١٢ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠٢ .

لهم من سلطة ترديد أسمائهم فى بعض المناسبات ، بينما كان الأمر كله بأيدي وزراءهم الأتراك .

ولقد مرت مصر فى أواخر العصر الفاطمى بمثل هذه الحالة ، حيث استبد بالحكم وزراءهم منذ استنجد الخليفة المستنصر ببدر الجمالى ، واستدعاه من الشام لإخماد الثورة التى كانت بالقاهرة ، فلما فتك بالخصوم أشد الفتك استساع هذا الأسلوب فى قمع الحريات ، فاستوزره الخليفة ، وما لبث الوزير أن استأثر بالحكم وحده دون الخليفة وسار الوزراء (الأرمن) الذين استبدوا بالحكم فى أواخر العصر الفاطمى على هذا النمط وبلغت المؤسسة قمتها فى النزاع بين الوزيرين « شاور » و « ضرغام » .

ولم يقدر لمصر أن تضى طويلا فى هذا الطريق ، كما سارت بغداد ، فسرعان ما جددت مصر شبابها بدماء جديدة تمثلت فى الحكم الأيوبي ، فاستردت قوة شخصيتها السياسية التى جذبت إليها فيما بعد مركز الخلافة العباسية من بغداد ونقلتها إلى القاهرة ، ثم تصدت لخطر المغول ، وردتهم على أعقابهم .

ثالثاً : حفاوة الحكم بالأدب :

قدم الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين من أتباع الأئمة ( مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ) ، والفاطميون يتبعون مذهب فرقة من الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام « إسماعيل بن جعفر الصادق » وخلاصة القول فى عقائدهم ، أن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام ، وتمجيده أكثر من أى شىء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشور وثوب وعقاب . يقومون بفرائض الدين ، ويحرمون ما يحرمه الله ولا يقولون بالتبديل أو الإباحة ، ولم يعتقدوا التناسخ أو الطول أو التلاشى ، غير أنهم قالوا بأنوار الأنبياء ، فلكل نبي دوره ، ويأتى النبى الذى بعده ينسخ شرع النبى قبله فلما جاء نور محمد وهو خاتم الأنبياء جمع الله له كل أنوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث فى أنوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله فى نور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث « لوصى محمد والأئمة بعده ، وأولوا ذلك تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، وترأه

واضحاً فى أشعارهم ورسائل كتابهم » (١)

(١) فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٦ .

ولم يفرض الفاطميون هذه العقائد فرضاً بقوة السيف ، وإنما استخدموا الدعاة والعلم في نشر مذهبهم ، وكان نصيب الأدب شعره ونثره في هذا الميدان كبيراً فاهتموا بهما ، فقد نقل المقرئى أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، ويروى أيضاً أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصوفين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم ، ويحدثنا المقرئى في كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات ، عليها صور الشعراء ، كل شاعر وبلده ، وعلى جانب كل طاقة من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها أبيات من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الأخر رف لطيف مذهب ، وأن الخليفة الأمر بأحكام الله دخل هناك وقرأ الأشعار ثم أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يأخذ كل شاعر صرته بيده (١) .

وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يقدن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعراً جديداً في مدح الأئمة ، ويحدثنا عمارة اليمنى أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر ، أخرجت له السيدة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار (٢) .

ويذكر المؤرخون أنه كان من بين الخلفاء الفاطميين من يتشد الشعر ، ومن شعر المنصور

بإله يخاطب ابنه وولى عهده المعز لنين الله :

وَشَوْقِي شَدِيدٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ	كَتَابِي إِلَيْكَ مِنْ أَقْصَى الْغُرُوبِ
وَأَحْمَلُ نَفْسِي عَلَى كُلِّ هُوْلٍ	أَجُوبُ الْقِفَارَ وَأَطْوِي الرُّمَالَ
وَأَعِزَّازَ نَوَالَةِ آلِ الرُّسُولِ	أُرِيدُ بِذَلِكَ رِضَاءَ الْإِلَهِ
وَكُلَّ الرُّكَّابِ وَتَاهِ الدَّلِيلِ	إِلَى أَنْ يَرَى السَّيْرُ أَجْسَامَنَا
نَهَضْتُ بِقَلْبِي صَبُورٍ حَمُولٍ	وَمَا ضَمَقْتُ ذُرْعاً وَلَكِنْتَسِي
بِقَتْرِ مَبِينٍ وَعِزِّ جَلِيلِ	وَقَدِمَنْ نُو الْعَرْشِ مِنْ فَضْلِهِ
عَطَاءٌ جَدِيدٌ وَصَفْحٌ جَمِيلِ	وَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ اللَّهِ لِي
وَحَسَنِي رِيٍّ وَنِعْمَ الْوَكِيلِ (٣)	قَلْبُهُ حَمْدٌ عَلَى مَا قَضَى

(١) خطط المقرئى ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ، ٢٩٠ ، اتعاط الحنفاً باختيار الأئمة الفاطميين الخلفاء . للمقرئى القاهرة ، هـ ص ٣١٧ .

(٢) التكت المصرية . عمارة اليمنى ، ص ٢٤ .

(٣) النجوم الزاهرة . لابن تفرى يردى ، ج ٤ ، ص ١٣٢١ .

ويقول أبو المحاسن عن ( العزيز ) إنه كانت له فضيلة وله شعر جيد ، وروى الثعالبي في  
يتيمته قول العزيز ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد الماتم عليه :

نحنُ بنو المصطفى نوحِ مَحْنٍ      يَجْرُعُهَا فِي الْحَيَاةِ كَأَظْمِنِ  
عَجِيبَةٌ فِي الدُّنْيَا مَحْتَنِنَا      أَوْلَانَا مُبْتَلَى وَخَاتَمُنَا  
يَقْرَحُ هَذَا السُّورَى بِعِيدِهِمْ      طُرّاً ، وَأَعْيَادُنَا مَا تَمُنَا (١)

وشارك وزراء مصر الفاطمية في ازدهار الشعر ، فكان الأفضل يجلس بدار الملك التي  
أنشأها في مجلس العطايا ، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنان ،  
وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف ، فمن هذه الظروف  
كان يقدق في عطايه على الشعراء الذين كانوا يقصدونه ، ولعل أشعر وزراء الفاطمية وأكثرهم  
تودداً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح « طلائع بن رزيك » ، فقد جمع شعره في مجلدين  
كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه ، فكان شيئاً كبيراً ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق  
منها إلا شذرات ، وكذلك كان الوزير الناصر العادل « رزيك بن الصالح » الذي وصفه عمارة  
اليمنى بقوله : « وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه ، فسوق الشعر قد  
ازدهرت في عهد الوزراء كما كانت مزدهرة في عهد الأئمة .

وقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء ، وذلك لأن اتساع ملكهم وتشعب نواحي  
حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجهوا همتهم إلى العناية بالنواوين المختلفة عناية خاصة ،  
تناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم ، ودعاية لهم عند شعوب العالم كله .

فهذا التشريف الذي جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة  
في عصرهم ، وكان من أسباب كثرة إقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة  
الكتابة في النواوين الكثيرة التي رتبها الفاطميون حتى يتسنى لهم تحقيق أطماعهم في سيادة  
العالم الإسلامي ومباهاة الدول المناوئة لهم بعظمة دولتهم . وكان وزراء العصر الأول من الحكم  
الفاطمي بمصر يختارون من رجال القلم الذين ترأسوا النواوين قبل اختيارهم  
للوزارة ، « فجوهر الصقلي » كان كاتباً من كتابهم ، و« يعقوب بن كلس » والفلاحى والجرجاني

(١) (أ) يتيمة الدهر ، الثعالبي ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(ب) النجوم الزاهرة « لابن تفرى بردى » ، ج ١ ، ص ١١٣ .

واليازدى وغيرهم ممن تولوا الوزارة ، كانوا كتاباً فى الدواوين ، أما فى العصرين الثانى من الحكم الفاطمى فكان الوزراء يختارون من رجال السيف ، وظل الكتاب يتمتعون بمثل مركزهم الرفيع ، فكان منهم جلساء الخليفة وحجابه ، ومنهم القضاة والدعاة وهذه كانت أرفع مناصب الدولة بعد الوزراء ، ومعنى هذا كله أن الفاطميين عنا بالكتاب عناية خاصة لحاجتهم إليهم فى تسجيل كل دقيقة وعظيمة ، فخرج الخليفة إلى الصلاة أو فى الأعياد والمواسم ، وتعيين الوزراء والكتاب والقضاء والدعاة وغيرهم من أرباب الوظائف وحضور رسول من قبل دولة من الدول أو غير ذلك من الأعمال التى كانت تصدرها سجلات من الدواوين فيها من فن الكتابة صور رائعة تمثل العصر أصدق تمثيل (١) .

ويصور القلقشندى موقف الخليفة الفاطمى من كتاب ديوان الإنشاء وحالة هذا الديوان بقوله : « لما ولى الفاطميون الديار المصرية ، صرقوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره وشاع فى الأفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمى فكتب للعزیز بالله بن المعز أبو المنصور بن سوريين النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ، ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر الهزكى .. وكتب للخليفة المستنصر القاضى ولى الدين خيران ، ثم تولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله من الوزارة ، وأبو السعيد العميرى وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على ابن أبى أسامة الحلبي ، إلى أن توفى فى سنة اثنين وعشرين وخمسائة ، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجد البصرى المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قابوس ، وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ، القاضى الفاضل البيسانى ، ثم شرك للعاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محمود بن الأنصارى ، وكان فى أيامه القاضى المؤمن

(١) الحياة الفكرية والأدبية بعصر ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢١٠ وما بعدها .

كاسييو ، ثم كتب القاضي بين يدي الموفق بن الخلال قرب وفاته في سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١).

وقد هيا القاطميون في مصر بهذا الأسلوب مناخاً أدبياً خصباً ، لم يجد الأيوبيون بدا من الحفاظ عليه ورعايته تمكيناً للخطة التي وضعوها لمحاربة المذهب الشيعي ، فكما لجأ القاطميون إلى الأدب لبث تعاليم الشيعة لجأ الأيوبيون لتقويض ما بناه خصومهم إلى الأسلوب ذاته ، وهكذا تعهدت الأدب المصري نولتان قويتان تعاقبتا في رعايته وإن اختلفت أهداف كل منهما عن الأخرى في الاهتمام به ، ويروي عن بعض الحكام الأيوبيين تعلقهم بالأدب وتنوقهم للشعر . وكان صلاح الدين كثيراً ما يستدعي بعض مقربيه ويطلب إليه أن يقرأ عليه في ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامي المعاصر من أفضل النواوين لديه ، كذلك كان ابن منقذ نفسه ، فقد حظى بعطفه في أواخر أيامه ، وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلة الشيخوخة .

واشتهر « تاج الملوك بوري » آخر صلاح الدين الأصغر بشغفه بالأدب ، ومنادمة الأدباء حتى روى ابن خلكان أنه ترك ديواناً من الشعر ، ومنه قوله :

أه من ورد خديك بالمسك منقط

بين أجفانك سلطان على ضغنى مسقط

قد تصبرت وإن برح بي الشوق وأفرط

فلعل الدهر يوماً بالتلقى منك يفلط

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شريت من الفرات نيل مصر	أحب إلى من ماء الفرات
ولسى في مصر من أصبو إليه	ومن في قربه أبدأ حياتي
فقلت وقد ذكرت زمان وصل	تمادى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر مني	وما لا أشتهيه إلى يأتي (٢)

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) مقدمة ديوان ابن سناء الملك وحياته وشعره ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٠ .

وقد قضى الملك الكامل العادل أربعين سنة فى حكم مصر ، دأب فيها على تشجيع الأدباء والعلماء ورويت عنه أخبار أعادت إلى الأذهان سيرة هارون الرشيد فقد كانت تبيت عنده فى القلعة فى كل ليلة جماعة أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون فيها بجانب سريره ليسامروه فى العلوم والآداب ، وقصده أرياب الفضائل ، ونوادره الأدبية أكثر من أن تحصى .

أما اهتمام الأيوبيين بالنثر فتعبر عنه هذه الكلمة التى قالها مؤسس الدولة الأيوبية عن القاضى الفاضل أمام ملائمن الناس : « لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى » (١) وقد ظل الفاضل بشخصيته وأسلوبه مثلاً يحتذىه أدباء عصره حتى طالعتنا عصره بمؤرخين يستخدمون الأدب الرفيع فى كتابتهم ، من أمثال : « ابن شداد » فى فتح بيت المقدس ، وعز الدين الأثير « فى حديثه عن مقتل الشهيد عماد الدين الزنكى وغيرهما من المؤرخين فى مواقف مختلفة .

يحدثنا القلقشندى عن ديوان الإنشاء المصرى زمن الدولة الأيوبية فيقول : « كان الفاضل رحمه الله قد كتب بين يدى الموفق بن خليل فى وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين بالملك ، فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين ، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر ، ثم مات . وكتب للكامل بن العادل القاضى أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج إلى أن توفى فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الطلى مدة قليلة ، وتوالت الإنشاء فى الولاية إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهيراً ، ثم صرفه وولى بعده صاحب فخر الدين بن إبراهيم بن لقمان فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية . (٢) .

وينبغى أن أفرق بين موقف الفاطميين والأيوبيين من الأدب العربى سواء فى إنتاجه أم التشجيع عليه ، فشعر الأئمة الفاطميين يدل على روح شاعرية صادقة وأصيلة كما نلمحه فى ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى وغيره ، ومشاركتهم تنبئ عن نوق ، وتشجيعهم ينبعث من العناية بالأدب لنشر مذهبهم .

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ .

(٢) صبح الأعمش ، للقلقشندى ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

أما الحكام الأيوبيون فاقرب ما أصور به موقفهم من هذا الفن هو المجازاة لما كان يسود المجتمع ، فشارك فيه بعضهم أو معظمهم ، مجازاة لتقليد اجتماعي . ففي ديوان عمارة اليمنى نلاحظ حديثه عن دعوات وجهت إليه لزيارة بعض حكام الأقاليم في العصر الأيوبي ، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الحكام كانوا حريصين على نوال مديحه حرصهم على الشارات العسكرية أو الحربية ، ولم يكن دافعهم إلى ذلك التثوق الفني أو التشجيع الأدبي لذاته .

## الحروب الصليبية :

ظهرت الحروب الصليبية على مسرح الأحداث في وقت كانت فيه الشام ومصر تعوج بالفتنة والانقسامات ، ففي الشام إمارات منقسمة متحاربة ، وفي مصر خلفاء لا يملكون من الأمر شيئاً استبد وزرائهم بالحكم وتناحروا عليه ، وفي خضم هذه الفوضى تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم على الشريط الساحلي للبحر الأبيض في بلاد الشام ، وأدركت المنطقة كلها هذا الخطر الداهم ، ولكن نون مقاومة حقيقية تردع ذلك العدوان ، حتى تأسست دولة الزنكيين ، وأخذ عماد الدين زنكي يوحد المنطقة الشمالية في مواجهة الصليبيين ، حيث ضم الموصل والجزيرة والشام والعراق سنة ٥٢٥ هـ ، وقام الصليبيون حتى استشهد غيلة فتابع ابنه نور الدين محمود جهوده في توحيد المنطقة فتم له ذلك سنة ٥٤٩ هـ (١) وشدد هجماته على الصليبيين وكان نور الدين يدرك أهمية مصر وضمها إلى سلطانه ، وأتاحت له الفرصة عندما لجأ إليه « شاور » مستنجداً ضد خصمه « ضرغام » ، فسير معه نور الدين حملة بقيادة أحد أمرائه « أسد الدين شيركوه » سنة ٥٥٩ هـ ، وتابع بعد ذلك حملاته . وقد حث العماد الأصفهاني ممنوحوه نور الدين على المبادرة إلى ضم مصر والاستيلاء عليها قائلاً:

وإن مصرأ لك تعنؤ بعدماً	لسيفك العضب عئاً صعيدهأ
والملة الفراء خال بالهأ	عال سنهأ ، بك حال جيدهأ
مفترة تغورها ، ممنوعه	تغورها ، محفوظة حنودها
وإن بفسى جالوتها ضلاله	فانت في إهلاكه داودها (٢)

(١) الروستين ، ج ١ ، ص ٥٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

ولم تكن عيون الصليبيين غافلة عما يدور حولها تجاه مصر ، لأنها كانت حريصة هي الأخرى على ضمها إلى ممالكها لتضمن ثبات قدمها في المنطقة ، وقد عبر عمارة اليمنى عن هذا التطلع الذى لم يكن خافياً على المترصدين مجريات الأحداث السياسية بقوله :

ياربُ إني أرى مصرأُ قد انتبَهتُ لها عيونُ الأعداءِ بعدُ رقدتِها  
فاجعلُ بها مُلّة الإسلامِ باقيةً واحرسُ عقودَ الهدى من حلِّ عقدتها  
وهبُ لنا منك عوناً نستجيرُ به من فتنةٍ يتلظى جمرُ وقتلتها (١)

وليس من الصدفة التاريخية أن تبدأ حركة المد الصليبي في الشام مع حركة الانكماش الإسلامى فى الأندلس ، فانتقلت جماعات من الأندلسيين إلى مصر التى قدر لها أن ترفع راية الجهاد وتقود النصر على الصليبيين مما جعلها قبلة العلماء والأدباء وصارت رمزاً ينبض بالثقة فى فترات اهتزت فيها ثقة المسلمين بقياداتهم وأوطانهم ، وبذلك اكتسبت مصر شخصية عالمية إسلامية تجمعت من حولها كل نواعى العزة والفخر .

وكانت الشام قسيمة مصر فى هذا الفخر ، ولكن التحام مواقع المسلمين فى الشام بالصليبيين جعل المقاتلين ( المدنيين ) بالقلم واللسان يتخونون من الحصون المصرية مواقعهم بعيدين عن خطر الغارات والمعارك ، وهذا كانت الصحراء الشرقية سبباً فى تواجد جماعة من العلماء والأدباء فى مصر خلال الحروب الصليبية .

وجعلت الحروب الصليبية من مصر مؤتمراً إسلامياً ينعقد كل عام ويحضره المسلمون من بلدان متفرقة من الهند وما جاورها ، والأندلس والمغرب ، حيث أغلقت الطرق البرية بين مصر والحجاز طوال الحروب الصليبية ، وأصبح لزاماً على الحجاج أن يسلكوا طريقاً أكثر أمناً ، فكانوا يتجهون إلى أعلى الصعيد فى مصر ، عند قوص ومنها يتجهون إلى ساحل البحر الأحمر حيث ميناء « عيذاب » ومن هناك يركبون السفن إلى الساحل الحجازى . وكان لهذا المؤتمر آثار سياسية واقتصادية وأدبية هامة على مصر .

#### رابعاً - انتشار البيئات العلمية والأدبية :

منذ اختط الفاطميون مدينة القاهرة حرصوا على أن تكون مدينتهم أعظم عواصم العالم ، فأقاموا بها دور العلم والمستشفيات ، وأقام بها أكابر العلماء والأطباء ولم يمض وقت (١) نبوان عمارة اليمنى ، ص ١٩٠ .

طويل حتى ازدهرت هذه المدينة ، وأصبحت منارة علمية وأدبية (١) ومن قبل إنشاء القاهرة كانت الإسكندرية منارة أخرى منذ أنشأها الإسكندر الأكبر (٢) .

وقد ضعفت الحياة الأدبية فيها مع بداية الفتح الإسلامي فترة من الزمان ولكنها لم تلبث طويلا حتى عادت إلى الازدهار من جديد ، خاصة في العصر الأيوبي . وكان من آثار تحويل الحجاج إلى صعيد مصر تكوين مراكز علمية وأدبية في بعض مدنه كأسيوط وقوص وأرمنت . وهكذا كانت البلاد المصرية تموج بحركات علمية وأدبية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . ولست بصدد إحصاء دور العلم والأدباء الذين تواجدوا في مصر خلال هذه الفترة ، وإنما اكتفى بإبراز المعالم العلمية والأدبية التي تميز هذه الفترة متمثلة في مراكز علمية ثلاث : العاصمة - الإسكندرية - الصعيد .

بيئة العاصمة :

أسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة وأقام فيها الجامع الأزهر بأمر المعز لدين الله وتم بناؤه سنة ٣٦١ هـ وكان الهدف من تأسيسه إقامة الصلاة والمساجد الإسلامية الأخرى التي وجدها الفاطميون في مصر عند دخولهم . ولكن الوزير « يعقوب بن كلس » أخذ في تحويله إلى مركز دعاية شيعي ، وأصبح الأزهر مدرسة لنشر المبادئ الشيعية إذ كان يدرس فيه الفقه الشيعي ، واصطبغت علومه بالصيغة الدينية . ولما أقام صلاح الدين تولته أبطل الخطبة من الجامع الأزهر وقضى على تدريس المذهب الشيعي ومع ذلك ظل الأزهر مدرسة تنتشر مبادئ السنة إلى جوار مدارس أخرى أنشأها الأيوبيون (٣) .

كما أنشأ الحاكم بأمر الله بجوار القصر الغربي الصغير سنة ٣٩٥ هـ دار الحكمة التي احتوت قاعات للمطالعة والنسخ وتلقى العلوم والدرس وكان يشرف عليها داعي الدعاة ، وللنساء في هذه الحلقات مكان خاص ، وكان الهدف من إنشاء هذه الدار استيعاب الكتب والمصالعات والمحاضرات ، وبتقريب القضاة ، وتعليم الدعاة بعد أن ينالوا شطراً من دراستهم في الجامع الأزهرى (٤)

(١) انظر مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ١ ، أحمد فكري .

(٢) راجع هذا البحث ، ص ٦٤ .

(٣) ١ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية . د . أحمد بدوي ، ص ١٤ .

ب - القاهرة : تاريخها وآثارها ، عبد الرحمن زكي .

(٤) الأدب المصري من قيام النولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٢ .

وقد نهضت هذه المؤسسة بالعلوم الفلسفية والعلمية في مقابل نهضة الأزهر بالعلوم الدينية . كما احتوت خزائن القصر الفاطمي على مكتبة ضخمة ، وصفها المؤرخون بأنها أعظم دار للكتب في عصرها ، وقد آل الكثير من كتبها إلى مكتبة القاضي الفاضل ، بعد بيعها في العصر الأيوبي ، حيث ضمها إلى مدرسته ، وكانت منارة طوال العصر الأيوبي إلى جوار غيرها من المكتبات التي أنشأها الوزراء الفاطميون كمكتبة الوزير يعقوب بن كلس ومكتبة برجوان أستاذ الحاكم بأمر الله (١)

وأخذت المدارس طريقها إلى الظهور في مصر منذ أواخر العصر الفاطمي وانتشرت خلال العصر الأيوبي ، ولم يكن نظام المدرسة معروفاً في الشرق بأسره ، وينسب بعض المؤرخين نشأتها إلى الوزير « نظام الملك » ، وكان انتشارها أول الأمر في بغداد ونيسابور والموصل والبصرة خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (٢).

والمدرسة بناء في وسط صحن كبير مربع الشكل ، في كل جانب من هذا المربع إيوان مقبب ويراعى في بنائها أن تكون على سمت القبلة ، ويكل مدرسة محراب ، فأصبح من الصعب التفرقة بين المسجد والمدرسة .

وفي عهد الخليفة الفاطمي العاضد أنشأ وزيره صلاح الدين الأيوبي مدرسة الشافعية بجوار الجامع العتيق (٣) ومدرسة المالكية التي عرفت باسم دار الغزل ، وبعد موت العاضد أنشأ صلاح الدين عدة مدارس قال عنها السيوطي فيما رواه عن ابن خلكان أنه قال : « لما ملك صلاح الدين الأيوبي الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس فبنى صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعي ، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسيني وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين « خانقاه » ، وجعل دار عباس الوزير العبدى مدرسة للحنفية ، عرفت بالسيوفية ، وبنى بمصر مدرسة أخرى للمالكية وهي المعروفة بالقمحية (٤) .

(١) مقدمة ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمي ، تحقيق محمد سعد الأعظمي ، ص ٤٩ .

(٢) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٤ . سيرة القاهرة ( مترجم ) ، ص ١٦٦ .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج ٦ ، ص ٥٥ ، الخطط للمقريزي ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٤) حسن المحاضرة ، للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

كما شارك أمراء البيت الأيوبي وبعض نسايتهم فى تأسيس مدارس أخرى كالمدرسة الكاملية التى أنشأها الكامل بن محمد بن الملك العادل أبى بكر أيوب سنة ٦٢١ هـ ، وتسمى دار الحديث ، والمدرسة الصالحية التى أسسها نجم الدين أيوب سنة ٦٣٦ هـ والمدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل سنة ٦٨٠ هـ ومدرسة الأحناف التى بنتها السيدة « عاشوراء » زوجة الأمير « أيازكوج » أحد أمراء صلاح الدين ، وقد تبرعت بدارها وأقامت عنيتها مدرستها (١)

### بيئة الإسكندرية :

لم تكن الإسكندرية أقل حظاً من القاهرة فى ازدهار الحياة الفكرية والأدبية ، وكان لموقعها أمام بلدان البحر المتوسط ، وكونها مفتاح مصر الغربى إلى الشمال الإفرقى والأندلسى ، وحضاراتها القديمة ، وبعدها النسبى عن عاصمة الخلافة الفاطمية أثر فى أن يأتى إليها كثير من علماء السنة ويمارسون نشاطهم فيها . وقد تآلق نجم الإسكندرية فى العصر الأيوبي أكثر من العصر الفاطمى ، وذلك لأن القاهرة وهى العاصمة الفاطمية كانت حديثة النشأة فسلطت عليها الأضواء ولأن الإسكندرية قريبة من الأندلس . وقد شهد العصر الأيوبي توافداً أكثر من العصر الفاطمى ، ولأن الإسكندرية لم تكن مركزاً شيعياً لا فى العصر الفاطمى ولا فى العصر الأيوبي ، فتكاثر فيها السنيون .

تزدحم المراجع العربية بقوائم رجال العلم والأدب والشعر الذين أقاموا بالإسكندرية وأسسوا فيها نهضة علمية وأدبية . وبذلك كثرت فيها نور العلم والمساجد وأتاه الطلاب والأساتذة . ومن أشهر مساجدها ومدارسها ، جامع العطارين الذى عمره بدر الجمالى سنة ٥٤٧ هـ . ومدرسة الطرطوشى التى بنتها زوجة الإمام الطرطوشى لتدريس الفقه المالكى سنة ٥١٥ هـ ، والمدرسة العادلية ، وهى المدرسة السلفية التى بناها للشافعية العادل بن السلار سنة ٥٤٣ هـ (٢) وقام بالتدريس فيها الحافظ السلفى ، وفيها سمع صلاح الدين الأيوبي درساً

(١) خطط المقرئى ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٢) كان ابن السلار شافعيًا وشغل الوزارة للخليفة الظاهر وأنشأ فى الإسكندرية مدرسة سنية فى العصر الفاطمى لأنه كان حاكمها ولأنها بعيدة عن مركز الدعوة بالقاهرة . انظر : الفاطميون فى مصر د . حسن إبراهيم ، ص ٢٩٦ ، والحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، د . أحمد بدوى ص ٣١ .

فى الحديث سنة ٥٧٢ هـ والمدرسة الصلاحية التى أسسها صلاح الدين سنة ٥٧٧ هـ على ضريح أخيه تور انشاء ، وكانت القراءة فيها متصلة وطلب العلم دائما ليلاً ونهاراً ، وعرفت الإسكندرية النظام الجامعى بمعناه الحديث فى تلك الفترة حيث كانت بها دار المغاربة تستقبل الوافدين ويقوم بها الطلاب وتقدم لهم الخدمات العلمية والطبية تحت إشراف المسئولين . كما كان بالمدينة عدد كبير من المساجد والرباطات والخانقات التى يأتى إليها المتصوفة ، ومن أشهرها رباط الأمير الهكارى (١) .

### بيئة الصعيد :

كانت الأنشطة الثقافية موزعة بين أرجاء وادى النيل خلال العصرين الفاطمى والأيوبي وأخذت مناطق مختلفة فى الصعيد دورها فى الظهور وعلى مسرح الحركة الفكرية والنشاط الأدبى فى مصر ، ويتألق نجم مدينة قوص التى وصفها ابن جبير بقوله : « هذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر ، الوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديسين وتجار أرض الحبشة لأنها محضر الجمع ومحط الرجال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انفلاتهم فى صدورهم من الحج (٢) .

كما نشطت الحياة الأدبية بمدينة أسيوط وهى المدينة العريقة ذات التاريخ الحضارى القديم التى خرج منها ( أفلوطين ) صاحب الفلسفة الأفلوطينية الحديثة المشهورة بالإسكندرية وكان أفلوطين قد انتقل إليها وأسس مدرسة بها قبل الفتح الإسلامى .

وفى مصر الفاطمية أخذت أسيوط حظها فى الشهرة فأنشأ بها الفائز الفاطمى مدرسة عرفت بالمدرسة الفائزية جمعت طائفة من كبار العلماء الذين قاموا بالتدريس فيها كالعالم المغربى الجليل « نجم الدين المغربى » و« الفتح بن موسى بن حماد » المتوفى بها سنة ٦٢٢ هـ وغيرهما .

---

(١) راجع تفاصيل حضارة الإسكندرية ودور العلم بها فى كتاب الحافظ السلفى ، محمد زيتون ، ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) الطالع السعيد ، للأدقوى ، هامش ص ١٢

واشتهرت أسرة « معاتى » فى مدينة أسيوط وهى أسرة قبطية ظهر فيها طائفة من الشعراء « كالمهذب بن معاتى » الذى تولى ديوان الجيش أواخر العصر الأيوبي ، وابنه « لاسعد ابن معاتى » كان شاعراً من كبار شعراء مصر الأيوبية واتصل بالقاضى الفاضل وتولى بعض المناصب الهامة فى مصر (١)

وقد عدد الأدهوى فى كتابه الطالع السعيد أسماء طائفة من علمائه وأدبائه الذين أسهموا فى بناء الحياة الأدبية فى مصر خلال مرحلة النضج (٢) .

---

(١) الأديب فى العصر الأيوبي ، د . محمد زغلول سلام ، ص ١٦٤ .

(٢) انظر « الطالع السعيد » ، ص ٥ ، وما بعدها .

## الفصل الثاني

### ظهور بواكير الشخصية المصرية في الشعر

ميلاد الشعر العربي بمصر :

كان ظهور الشعر العربي بمصر ومشاركة المصريين فيه أسبق من ظهور النثر الفنى ، فبينما تألق نجم بعض الشعراء المصريين فى القرن الثانى الهجرى لم يعرف لمصر كاتب مشهور .

وقد عرفت مصر الشعر العربى أول ما عرفت على أيدي بعض الشعراء الذين وقدوا مع القبائل التى استقرت بمصر عقب الفتح الإسلامى وقد عبروا فى أشعارهم عن الحياة السياسية التى عاشتها مصر فى القرن الأول الهجرى . ومن ذلك أن « عبد الرحمن بن جحدم » والى مصر من قبل ابن الزبير ، فلما أن بويع « مروان بن الحكم » سنة ٦٤ من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبير ، فسير جيشاً عليه « زهير بن قيس العلوى » إلى « أيلة » ليمنع عبد العزيز من المسير ، وسار مروان أيضاً إلى مصر ، وهزم الجيش المصرى ، وتقدمت جيوش الروانيين ، ففى هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعراً . ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النثر اليسير . ومن ذلك ما قاله « زرعة بن سعد بن أبى زمزمة الحشنى » يمدح ابن جحدم :

وما الجِدُّ إلا مثلُ جدِّ ابنِ جحدمٍ      وما العزمُ إلا عزمُهُ يومَ خندَقِ  
ثلاثون ألفاً هم أثاروا ترابَهُ      وحلوه فى شهرٍ حديثٍ مصدَّقِ (١)

واستمرت الحروب التى كانت بين الزبيريين والأمويين فى مصر طويلاً وكانت هذه الحروب تعرف بأيام الخندق أو « التراويح » (٢) لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ويخرج غيرهم ، وقتل من المصريين عدد كثير لاسيما من « المعافر » . وفى هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانياً :

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٢٩ .

(٢) الحياة الفكرية والأدبية بمصر . د . محمد كامل حسين . ص ٨٨ ، ١٩ .

ألا هل أناهما على نأبها  
 بلغنا بفيلق يغشى الظراب  
 نبأء الثرابيح والخندق  
 بعيد السمؤ لمن يرتقى  
 وسدت معافر أفق البلاد  
 بمزعد جيش لها مبرق  
 ونادى الكماة : ألا فابرزوا  
 فحتام حتى ولا نلتقى (١)

كما عبروا عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التي عاشتها تلك القبائل في مصر بما فيها من نزاع وتفاخر ، ومن ذلك ما قيل من الشعر في القصة المعروفة بقصة « جناح الزعفران » وهي قصة تشبه - تماماً - قصة داحس والفبراء التي كانت في الجاهلية . وفخر الحضارمة بتولى أحد رجالها « لهيعة بن عيسى الحضرمي » منصب القضاء بمصر سنة ١٩٩ هـ فقال أحد شعراء قبيلته :

لقد ولي القضاء بكل أرض  
 من الفراء الحضارمة الكرام  
 رجال ليس مثلهم رجال  
 من الصيد الحجاج الضخام (٢)

وقال يزيد بن مقسم الصدفي :

يا حضرة موت هنيئاً ما خصصت به  
 من الحكومة بين العجم والعرب  
 في الجاهلية والإسلام يعرفه  
 أهل الرواية والتفتيش والطلب (٣)

وإذا كان لهؤلاء الشعراء الوافدين سبق التغنى في سماء مصر بالشعر العربي ، فإن معظم شعراء العرب أتوا زائرين منشدين ومعلمين ومسجلين طرفاً من أخبارها وأحداثها ، وواصفين معالمها وأثارها ومن هؤلاء الشعراء :

#### ١ - عبيد الله بن قيس الرقيات :

وقد زار مصر في إمارة عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥ - ٨٦ هـ وملحه . وتغنى بجمال مدينة حلوان تلك المدينة التي أنشأها عبد العزيز إبان ولايته على مصر ومما قاله الشاعر في وصفها

(١) في الأدب المصري الإسلامي . د . محمد كامل حسين . ص ١٢٦ .

(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبي عمر يوسف الكندي . تحقيق « رفن كست » بيروت ، ٨ ، ١٩ م . الحجاج جمع حجاج . وحجاج جمع حجاج وهو السيد الرفيع القدر .

(٣) في أدب مصر الاسلامي . د . محمد كامل حسين . ص . ١٦٦ .

سقياً لخلوان ذى الكُرُوم وما      صُفِّىَ مِنْ تَيْنِهِ وَمِنْ عَنبِهِ  
 نخلٌ مواقيرٌ بالفناء من ( البُرِّ      نَى ) غلبَ تهتز فى شربه (\*)  
 أسودُ سكانهُ الحمامُ فما      تنفكُ غريانه على رُطْبِهِ (١)

٢ - وجميل بن معمر : شاعر الغزل الذى قدر له أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بمصر سنة ٨٢٠ هـ . وأنشد عند احتضاره :

بَكَرَ النُّعْمَىٰ وَمَا كَانَ بِجَمِيلٍ      مَتَوَىٰ بِمِصْرَ ثَوَاءً غَيْرَ قَفِيلٍ  
 قَوْمَىٰ بِشَيْئَةٍ فاندبى بعويلٍ      وابكى خَلِيلَكَ قَبْلَ كُلِّ خَلِيلٍ (٢)

٣ - و« كثير عزة » : الذى تردد على مصر مراراً ومدح الأمير عبد العزيز بن مروان وفيها رثى حبيبتة :

أقول وتضوى واقفٌ عندَ رأسِها      عليكِ سلامُ اللهِ والعينُ تسفحُ  
 فهذا فراقُ الحقِّ لا أنْ تزيرنى      بلادكِ فتلاءُ الذراعينِ صيدحُ  
 وقد كنتُ أبكى من فراقكِ حيةً      وأنتِ لعمري اليومُ أنأى وانزحُ (٣)

٤ - ونصيب بن رباح : الذى اتصل بعبد العزيز بن مروان ، وكان كثير التردد على مصر وسجل فى شعره بعض مظاهر الحياة المصرية من خلال مراثيه لعبد العزيز بن مروان ، الذى توفى سنة ٨٦ هـ ، وكان مرض الطاعون قد تفشى فى مصر فلجأ الأمير إلى قرية من قرى صعيد مصر تسمى « سكر » فرارا من هذا المرض ، ولكن « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، فعاجلته المنية فى هذه القرية ، ورثاه الشاعر مسجلا هذه الحادثة :

أصِبتُ يومَ الصعيدِ فى سكرٍ      مُصيبةٌ ليس لى بها قبيلُ

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ، القاهرة ١٩٦٧ . ص ٥٥٨ .

(٢) خطط المقرئى : ج ١ ط ١ منشورات مكتبة العرفان . لبنان ص ٣٦٨ .

(\*) البرنى : نوع من التمر . غالب : ملتفة .

(٣) الأغانى ج ١ ، ص ١٣٩ . كانت وفاة الشاعر سنة ١٨٠ هـ . انظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص

باللَّهِ أنسى مصيبتى أبداً ما أسمعُتني حينها الإبرئ  
 لو يعلمُ التُّعشُ ما عليه من العرفِ ولا الحاملون ما حملوا  
 حتَّى أجتُّه في ضريحهم حين أنتهى من خليلك الأملُ

٥ - « أبو نواس » : الذى مدح الخصب ، والى مصر ثم انقلب عليه فهجاه ، وقد استمد  
 صورته الفنية من ملامح البيئة المصرية ، فتراه فى مدحه يمزج بين النيل وفيضانه وعطاء  
 المدوح وإغداقه .

أنت الخصبُ \* وهذه مصرُ فتدققا فكلاكما بحرُ  
 لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئاً فما لكما به عُذرُ  
 وحقُّ لى إذ صيرتُ بينكما الأيحلُ بساحتى فقُسرُ  
 النيل يُنعشُ مآؤه مصراً ونذاك يُنعشُ أهله الغمرُ (١)

وقد أقام « أبو نواس » عاماً كاملاً بمصر سنة ١٦٠ هـ . يشارك فى أحداثها بشعره  
 ويضيف إلى خصائص فنه عنصراً جديداً من وحي البيئة المصرية ، فهو يتحدث عن النيل ،  
 ويشير إلى قصة موسى وفرعون فى أكثر من موضع حيث يقول :

منحتكم يا أهلَ مصرَ نصيحتى ألا فحشوا من ناصح بنصيبِ  
 ولا تشبوا وثبَ السفاة فتركبوا على حدِّ حامى الظهر غيرِ ركوبِ  
 فإن يك باقرُ إفكُ فرعونَ فيكم فإن عصا موسى بكفَّ خصيبِ  
 رماكم أمير المؤمنين بحية أكلول لحيات البلادِ شروبِ

وتسابق أدباء مصر وشعراؤها إلى مصاحبة أبى نواس وكتابة شعره وكان بينهم شاعر  
 أراد أن يعلى شأنه بهجاه أبى نواس فقال :

ألقول للنَّوَّاسِ الضعيفِ الحالِ والقدرِ  
 خيرنا منك أحوالاً فلم تصمدك فى الخبرِ

(\*) الخصب بن عبد الحميد العجمي ثم الموادي . ويرجع الدكتور محمد كامل حسين أنه كان أميراً على  
 الخراج بمصر سنة ١٨٩ هـ . انظر : فى الألب المصرى الإسلامى . د . محمد حسين ، ص ١٧٧ ، ١٨٩ .  
 (١) ديوان أبى نواس ص ٨١ ط الحلبي . القاهرة . ١٣٢٢ هـ .

وما إن ذُغمتَ بالمنظُرُ ولكنْ ذُغمتَ بالذُّكُورِ  
 وكان هذا الشاعر قبيحا فقال فيه الناسي :  
 بما أهجُوكَ لا أدري لساني فيك لا يجـرى  
 إذا فـكـرت في هـجـرِك أبقيتُ على شعري (١)

٦ - و « دعبل بن علي الخزاعي الذي وفد على والي مصر « المطلب ابن عبد الله الخزاعي » فأكرمه وعينه حاكما على أحد الأقاليم ، فمكث الشاعر أياماً به ، ولعله لم يرض بما ناله ، فغضب ، فاضطر الوالي إلى عزله . وسجل « دعبل » بعض أحداث مصر ، فعندما عزل المطلب من ولاية مصر ، لم يقبل أن يسلمها لمن خلفه ، فتحاريا ، فانهزم المطلب واضطر إلى الفرار إلى مكة . فقال دعبل :

فكيف رأيتَ سُيوفَ الحريشِ ووقعةً مؤلى بني ضبئة  
 أحجُوتك أسيافهم كارهاً ومالك في الحج من رغبة (٢)

٧ - وقد شارك « أبو تمام » أثناء مقامه بمصر في تسجيل بعض الوقائع من ذلك ما قاله الشاعر « لعبد الله بن الطاهر » حين قدم مصر وهزم عبید الله بن السرى سنة ٢٢١ هـ :  
 لعنرى لقد كانت بمصرَ وقيةً أقامت على قصد الهدى كل مائل  
 على الخندقِ الأقصى وما كان حوله وما قد يليه من قضاءٍ وساحل (٣)  
 ٨ - أبو الطيب المتنبي :

وكانت وفادته عامرة بالأحداث ، لأن طموحه لم يكن موضع رضا ، فحقد عليه الشاعر المصري أبو القاسم بن أبي العفير الأنصاري . وعاب المتنبي على هذا الشاعر قوله :

### نظر المحب إلى الحبيب غرام

(١) المرجع السابق . ص ٩٣ .  
 (٢) كتاب الولاة ، وكتاب القضاة لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي ، بيروت ، ١٩٠٨ . ص ١٦١  
 يريد « بمولى بني ضبية » ( المصري بن الحكم ) الوالي الذي جاء خلفا للمطلب سنة ٢٠٠ .  
 (٣) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

فقال المتنبي : « إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له .

فقال الأنصاري : حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ، وكان هذا الحوار في مجلس

« كافور » وعرض الشاعر المصري بالمتنبي في قصيدة جاء فيها :

تعرض لى بمقت حاسدُ      أبدى الملام وكيف يرضى الحاسدُ  
ما زال ينشدُ قائماً حتى إذا      أنشدتُ عارضنى لأنى قاعدُ  
ولى ولا أنا شاكرُ لسؤالِهِ      فيه ولا هو للإجابةِ حامدُ (١)

ولنا أن تصور الأثر الذي يحدثه قول المتنبي في كافور الأخشيدي :

نامت نواطيرُ مصر عن ثعالبها      فقد بشمِنَ وما تقضى العناقيدُ  
العبدُ ليس لحرٍ صالحٍ بائعُ      لو أنه فى ثيابِ الحرِّ مولودُ  
لا تشتتِ العبدُ إلا والعصامعةُ      إن العبيدَ لأنجاسُ مناكيدُ  
ولا توهمتُ أن الناسَ قد فُقدوا      وأن مثلُ أبى البيضاءِ موجودُ

وسواء أكان المتنبي على حق في هجائه أم متجنياً ، فإننا نتخيل أن أجيالا من انصريين تغنت بهذه الأبيات المحكمة النسيج ، القوية في معناها ومؤداها ، خاصة إذا أدركنا أن الشخصية المصرية ساخطة على حاكمها غير مجاهرة في خصومتها - كما وضحت ذلك سلفا - فلا شك أن مئات الافراد كانت تتشدد بهذه الأبيات ، تشفيا من حاكمها « كافور » أو غيره وما كان تحريم كافور أو أمثاله على المصريين أن يتبادلوا هذه الأبيات لإمداعة لانتشارها .

ومع أن المتنبي لا يمكن أن نعتبره شاعراً مصرياً ، ولكنه بوعى الفنان المقتدر أحس بالروح المصرية ، وعرف شيئاً من مميزات شخصيتها وما أحسب المتنبي كتب أبياته في كافور إرضاءً لنزعة السخط فحسب وإنما غنى للشخصية المصرية غناء الفنان الذي يعرف ما يطرب جمهوره ليحقق الإيذاء ، وليمجذ ذاته أولاً بذبوع شهرته .. وهذه الكناية اللطيفة التي أطلقها المتنبي على كافور حين دعاه « بأبى البيضاء » وهى صفة لكافور الأسود كناية مصرية صميعة ، تسرى فى أذان المصريين كأعذب موسيقى تسحر الألباب وتثير السخرية الفكاهة .

(١) الأدب المصرى الإسلامى ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٤٤ .

٩ - وتردد عليها الشاعر « كشاجم » ، وذكر في أشعاره طرفاً من حياة اللهو التي أخذت في الظهور منذ عصر الولاة فمما يروى أنه كان لبعض الولاة ولع بالمجون وشرب الخمر ، كالوالى « قرّة بن شريك » الذى هدم الجامع الكبير العتيق بالفسطاط ، وأعاد بناءه فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا « قرّة » بالخمور والزمور والطبول فيشرب فى المسجد طول الليل ، ويقول : لنا بالليل ولهم النهار

قال السيوطى عنه : « كان قرّة ظلوماً عسوقاً يدعو بالخمير والملاهى فى

جامع عمرو » (١)

وكانت لمصر مجالس تشبه مجالس أبى نواس فى بغداد ، من أشهرها مجلس سعيد المعروف بقاضى البقر شاعر الأخشيد ، ويروى أن خمارويه بن أحمد بن طولون ، بنى له غرفة فوق دير القصير ، وجعلها مرتاداً للهوى ومتعة وملقى لأصحابه من السمار وجلاس الكأس ، وقد أصبحت الأديرة مكاناً لهذه المتع ، وأشهرها دير القصير بمصر الذى يحدثنا عنه كشاجم فى قوله .

سلامٌ على دَيْرِ الْقَصِيرِ وَسَجْنِهِ      فجنّاتُ حلوانٍ إلى النُّخَلاتِ  
منازلُ كانتْ لى بهنّ مساربُ      وكانتْ مواخيرى ومنترهايتى  
هنالك تصفو لى مشاربُ لثنى      وتصصب أيام السُرور حياتى (٢)

وكان « كشاجم » دائم الحنين إلى الحياة الماجنة فى مصر بما فيها من شباب صعاليك

وغلمان مخنثين :

لقد كان شوقى إلى مصر يؤذنى      فاليوم عدت وعاتتِ مصر لى داراً  
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحباً      طوراً وطوراً أرجى السير أطواراً  
أما الشبابُ فقد صاحبَتْ شرهُمُ      وقد قضيتُ لبانساتٍ وأوطارا  
من شادين من بنى الأقباط يعقدُ ما      بين الكئيبِ وبين الخصرِ زئارا (٣)

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ١ ص ٥٨٧ .

(٢) خطط القرينى ج ٤ ص ٤١١ ط القاهرة ، ١٣٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

ومع نهاية القرن الثاني للهجرة أخذ شعراء مصر دورهم إلى جوار كبار الشعراء العرب في التعبير عن بعض جوانب الشخصية المصرية ، ومن أبرز هؤلاء الشعراء :

١ - « سعيد بن عفير » ، وهو أنصاري الأصل ولكنه ولد بمصر سنة ١٤٦ هـ ، وعاش أحداثها ، وسجل في شعره شطراً من حياتها السياسية ، إبان الثورة التي شنّها أهل الحوف على والي مصر « موسى بن مصعب الخشعمي » سنة ١٦٢ هـ ، عندما اشتط في جمع الضرائب ، فثاروا عليه وقتلوه ، ووصف الشاعر ثورتهم وامتدح صنيعهم في قوله :

ألم ترهم ألبت بموسى سيوفهم      وكانت سيوف لا تدين لترف  
فما برحت به تعود وتبتدي      إلى أن تروى من حمام مدكف  
فأصيح من مصر وما كان قد حوى      بمصر من الدنيا سلباً بنفنف  
ولكن أهل الحوف لله فيهم      نخائر إن لا ينفد الدهر تُعرف (١)

٢ - و « عامر بن سعيد » ، المعروف بالمعلّى الطائي ، الذي ذكر بعض أشعاره « أبو تمام » في مختاراته المعروفة « بالحامسة » ومنها هذه الأبيات :

لولا بنيات كزغب القطا      رددن من بعض إلى بعض  
لكان لي مضطرب واسع      في الأرض ذات الطول والعرض  
وإنما أولادنا بيننا      أكبادنا تمشي على الأرض (٢)

وقد سجل هذا الشاعر جانباً من شخصية مصر السياسية في شعره ، صور فيه الصراع على ولاية مصر ، بين « سليمان بن غالب » الذي تولى أمرها سنة ٢٠١ هـ ، وغيره « السري بن الحكم » ، وهو الصراع الذي انتهى بانتصار سليمان ، وإلقاء القبض على السري وسجنه في مدينة أحميم بصعيد مصر وفي هذه الأحداث يقول المعلّى :

(١) الولاة للكندي . ص ١٢٧ .

(٢) ( أ ) الحامسة . لأبي تمام ط ١ ، القاهرة ، ١٩١٦ م . ص ٨٨ ، ٨٩ .

(ب) المغرب في حل المغرب . لابن سعيد . ج ١ ص ١٠١ ط جامعة فؤاد الأول مصر .

إذا شئتُ في أرضِ سليمانَ غارةً      آثارَ بها نفعاً كثيراً المصابِ  
ألم ترَ مصرأُ كيفَ داوى سقيمَها      على حينِ دانتُ للعدوِّ المناصبِ  
حماها ولولا ما تقلدُ أصبحتُ      حبيساً على حُكْمِ القنا والمقانبِ (١)

٣ - و « يحيى الخولاني » : الذي شارك في تصوير بعض جوانب شخصية مصر الاجتماعية عندما هجا أقباط مصر ، ومن أعانهم في حادثة « الحراس » وسببها أن قوماً من القبط ، اتخنوا لأنفسهم نسباً عربياً مزوراً ، فجاؤا بشهود مرتشين وادعوا أنهم من بني حوثكة من قبيلة قضاة وحكم لهم القاضي العمري بذلك النسب العربي ، فثار عرب مصر وكان ، من بين الشهود أحمد بن حوى العذري فهجاه الشاعر الخولاني ، كما هجا القبط والقاضي في قوله :

يا لئيتَ أمَ حوى لم تَلِدْ نكراً      أوليتَ أن حوىً كان ذا خرس  
كسا ( قضاة ) عاراً في شهادته      لله در حوى شاهدِ الخرسِ  
شهادة رجعت لو أنها قبِلتُ      لأحق الزور منها العيرَ بالفرسِ (٢)  
وقال أيضاً :

ومن أعجبِ الأشياءِ أن عصابةً      من القبطِ فينا أصبحوا قد تعربوا  
وقالوا أبونا ( حوثك ) ، وأبوهم      من القبطِ علجٌ حبلُهُ متذبذبُ  
وجاعوا بأجلافٍ من الحرفِ فادعوا      بأنهم منهم سفاهاً وأجلبوا  
ألا لعنَ الرحمنُ من كان راضياً      بهم رغماً ما دامت الشمسُ تغربُ (٣)

مظاهر الشخصية المصرية وآثارها في فنون الشعر :

نلمح في بواكير الشعر المصري بعض الشخصية المصرية ( السياسية والاجتماعية والطبيعية ) ، كما نلاحظ آثارها في بعض فنون الشعر وأغراضه .

(١) الولاة الكندي ص ١٦٦ .  
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٩ .  
(٣) الولاة ، للكندي ، ص ٣٩٩ .

## ١ - الشعر السياسي :

لعل أسبق الأغراض تعبيراً عن الشخصية المصرية هو الشعر السياسي الذي تابع تسجيل الأحداث والفتن التي عاشتها مصر من زمن الولاة ولاسيما الولاة العباسيون .

من ذلك ما حدث سنة ٢٠٧ هـ ، عندما ، أرسل الخليفة المأمون خالد بن يزيد الشيباني والياً على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم ابن الجروى إلى جيش خالد ، استمر القتال مدة طويلة فمل الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل فى هذا الوقت ، فسار خالد إلى الحوف ، فلما رأى الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد من ملكه فمكر به حتى أنزل « نهيا » وهناك تركه ابن الجروى فى جهد وصفه المعلى بقوله :

سلا خالد لما انجلى عنه شكه      وأسلمه فى عبوة البحر خاذلُه

فزالت أمانيه غداة سما لنا      يعارض جيش يمطر الموت وإبله (١)

فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه وأسره، وفى ذلك قال المعلى :

ألا لا أرى خيلاً أضرب له الوغى      وأجبن فى الهيجاء من خيل خالدِ

وقواده أشرار كل قبيلة      تمالوا على إسلامه فى الشدائدِ

فما أسروا منه جباناً معضداً      ولكن أبا شبلين عبلاً السواعدِ (٢)

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن ، قسم مصر بين ابن السرى وابن الجروى ، فولى كل واحد منهما ما فى يديه ، فاقبل ابن الجروى على جمع الخراج ، فقاومه قوم من أهل الحوف فكتبوا إلى ابن السرى يستعينونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان فى « بلقينة » واستمر القتال طويلاً ، حتى اضطر ابن الجروى إلى أن يفر إلى دمياط ، ثم عاد ابن الجروى مرة أخرى سنة ٢١٠ هـ ، فملك تنيس ودمياط ، وهزم جيش ابن السرى ولم تهدأ هذه الفتن حتى نزل عبد الله بن طاهر مصر سنة ٢١١ هـ (٣) . وأخذها من ابن السرى ، كما خضع له ابن الجروى .

(١) الولاة ، للكندى ، ص ٣٩٩ .

(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٢٥ ، ٢٦٠ .

(٣) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

وتستمر هذه الفتن ، وإن خفت حدتها في عصر الطولونيين ، فالشاعر « القاسم بن يحيى المرمي » يحدثنا عن خروج خمارويه سنة ٢٧٢ هـ لقتال ابن كنداج ومطاردة ابن خمارويه لهذا الشاعر بقوله :

أنا أبو الجيش الأمير بيمنه      فشرد عنا الجورَ واقتَرَ العسرُ  
فإن يك أرض الرقتين به اكتست      ضياءً وإشراقاً لقد أظلمت مصرُ  
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلاً      أرتة المنايا الحمرَ أعلامه الحمرُ (١)

## ٢ - رثاء الدول :

أبدع المصريون في هذا الغرض ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أحداث السياسية التي عانى منها الشعراء واكتووا بناها عن كثب ، فالدولة الطولونية - التي سبق القول بأنها هيأت للشعراء مكانة مرموقة وعيشة راضية - لم تعمر طويلاً ، إذ انتزع العباسيون من جديد إمارة مصر من الطولونيين . وفي سنة ٢٩٣ هـ أمر القائد العباسي المنتصر بهدم الميدان الذي أنشأه ابن طولون فراح الشعراء المصريون يندبون هذه الدولة ويكفون على ما عفى من أثارها فقال الشاعر محمد بن طشويه :

من لم ير الهدم للميدان لم يره      تبارك الله ما أعلاه وأقدره  
كم كان يأرى إليه في مقاصره      أحوى أغن غضيض الطرف أحوره  
كم كان فيه لهم من مشرب غدق      فعب طرف الردى فيه فكدره (٢)

وقال سعيد القاص يبكي دولة الطولونيين :

جرى دمه ما بين سحر إلى نحر      ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر  
تتابع أحداث يضيئن صبره      وغدر من الأيام والدفر نوغدر  
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها      بفقد بني طولون والأنجم الزهر

(١) روى السيوطي أن الوزير أبا القاسم المغربي ذكر أن البطيخ العبد ولاوى الذى بمصر منسوب إلى عبد الله ابن طاهر هذا ، قال ابن خلكان : إما لأنه كان يستطيه ، أو لأنه أول من زعه بها - حسن المحاضرة ج١ ص ٥٩٢ .

(٢) خطط القريني . ج ١ ط بيروت . ص ١٠٨ . وكتاب الولاة للكندى ص ٢٦٣ .

ثم أخذ الشاعر يسجل أعمال ابن طولون ويشيد بمنشأته في مصر :

وكان أبو العباس أحمدُ ماجداً      جميلُ المحيا لا يبيتُ على وترٍ  
بنى مسجداً فيه يروقُ بناؤه      ويهدي به في الليل إن ضلُّ من يسرى  
مأثرُ لا تبلى وإن بادَ ربُّها      ومجدُ يؤدى وارثيه إلى الفخرِ  
فمن بيك شيئاً ضاعَ من بعد أهله      لفقدهم فليبك حزنأُ على مصر (٢)

## ٢ - الوصف

بدأت ملامح الشخصية المصرية تظهر في فن الوصف وأصبحت أعمال الطولونيين وأثارهم موضوعات لعديد من القصائد ، من ذلك ما قاله الشاعر سعيد القاص .

يدلُّ على فضلِ ابنِ طولون همَّةٌ      محلقةٌ بين السَّمَاكِينِ وَالْفِغْرِ  
فإن كنت تفي شأهداً ذا عدالةٍ      يخبرُ عنه بالجلى من الأمرِ  
فيا جبل الغريبِ خطة يشكر      له مسجد يغنى عن المنطق الهنرِ  
بناه بأجرٍ وساجٍ وعرعر      وبالممرِ المستون والحصنِ والصخرِ  
فسحَّ الرحابِ يحسُّ الطرفُ نونه      رقيق النسيم طيبُ العرفِ والنثرِ  
وتنورُ فرعون الذي فرقَ قلة      على شاهقِ عالٍ على جبلٍ وعِرِ  
وعينُ معينِ الشُّربِ عينٌ زكيةٌ      وغير أجاجٍ للسرواةِ والطهرِ  
كانُ وفودُ النيلِ في جنباتها      تروح وتغدو بين مدٍّ إلى جندِ  
ولا تنس مَارِسَتَانِه واتساعه      وتوسعة الأرزاقِ للحول والشهرِ  
فلعميتِ المقبورِ حسنُ جهازه      والحى رفقٌ في علاجٍ وفي جبر (١)

وفضلا عما تشير إليه هذه الأبيات مع غيرها في شتى الأغراض بمستواها الفنى - عن التعبير الصادق عن ظهور البواكير الأولى الدالة على شخصية مصر ، فإنها تقدم لنا وصفاً لبعض ملامح البيئة المصرية وتصويراً لفن العمارة المصرية ، وتستخدم صوراً منتزعة من البيئة المصرية .

(١) كتاب الولاة للكندى ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٥٤ .

ولعل الشاعر استوحى معنى البيت الأخير من الموروث فى البيئة المصرية حيث قدم الموتى على الأحياء ومعروف أن المصريين يبالغون فى تقديس موتاهم مبالغة شديدة .  
وكما صور الشعر وصف الآثار ، فإنه صور جانباً آخر من البيئة الطبيعية التى توضح خصائص الشخصية المصرية : فالشاعر صالح بن موسى « يصف البركة بقوله :

أَوْ مَا تَرَى حُسْنَ الرِّبَا ض وَمَا اكْتَسَبْنَ مِنَ الزُّهْرِ  
وَجِبَهُ الرِّيبِعِ وَحَبْدًا وَجِبَهُ الرِّيبِعِ إِذَا ظَهَرَ  
الْوَشْشِيُّ يَنْشُرُ وَالْمَلَا حِفًّا وَالْمَطَارِفُ وَالْحَبِيرُ  
هَذَا الْبِنْفَسِجِ فِى الصَّادَا د يَغِيرُ حَزْنَ قَدْ ظَهَرَ  
وَأَتَى الْبُهَارُ بِصُفْرَةٍ قَلَّ كُلُّ حُسْنٍ قَدْ يَهْرُ (١)

كما سجل فى الوصف بعض الأحداث الطبيعية التى وقعت فى تلك الفترة. من ذلك مارواه السيوطى أن زلزالاً وقع بمصر أيام كافور الإخشيدي، فأنشد محمد بن القاسم بن عاصم قصيدة منها :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا نجل الملا وسليل السادة الصلحا  
مازلت مصر من سوء يرادبها لكنها رقصت من عدله فرحا (٢)  
وفى أيام أحمد بن طولون تساقطت النجوم فراعاه ذلك، وأخذ يسأل العلماء والمنجمين فما أجابوه بشيء، ودخل عليه الجمل الشاعر وهم فى هذا الحديث فأنشده.

قالوا تساقطت النُجُومُ مٌ لِحَادَثٍ فَظُّ عَسِيرٍ  
فأجبتُ عندَ مقالِهِمُ بِجِوَابٍ مُحِثَّتِكَ خَبِيرٍ  
هَذَى النُّجُومِ السُّاقِطَا تٌ نَجُومٌ أَعْدَاءِ الْأَمِيرِ (٣)

#### ٤ - المجون :

شهدت بداية الحكم الطولونى لمصر مرحلة استقرار نسبي صحبتها موجة من الثراء، ومع الثراء ينتشر اللهو والمجون، والشعراء سباقون إلى الانغماس فى هذه الحياة عملا وقولا،

(١) المرجع السابق ص ٢٧٧ .

(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين ، ص ٢٢٧

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٨٠

وربما شجعهم على ذلك أن بعض ملوك هذا العصر شاركهم طرفاً من حياة المتع واللهو، فأحمد ابن طولون - مع ما عرف عنه من تدبير - كان ميالاً إلى الشراب والطرب والمسامرة. وروى بعض المؤرخين عن ابنه خمارويه أنه كان مسرفاً في الشراب، وسبق القول أنه أقام غرفة فوق دير القصير، كان يتردد عليها مع رفاقه طلاب اللهو، وكان بهيكل الدير صورة جميلة للسيدة العذراء يحلو للشاريين تناول كتوسهم مع إدامة النظر إليها :

كم شربنا على التصاوير فيه بصفاً محثوثةً وكبار  
صورةً من مصورٍ فيه ظلت فتنةً للقلوب والأبصار  
لا وحسن العينين والشفة اللمياء فيها وخدفاً الجلفاري  
لا تخلفت عن مزارى ديرا هي فيه، ولا نأى بس مزارى  
فسقى الله حلوان فالنجد فدير القصير صوب العشار  
كم تنبئت من لذاعة نومي بنعير الرهبان في الأسحار  
والنواقيس صائحات تنادي : حتى يا نائماً على الابتكار (١)

وتطالعنا أشعار تلك المرحلة بأسماء الأديرة التي كانت مقصد المتع واللذات بمصر كدير القصير، ودير مار حنا، ودير نهيا وغيرها. يخبرنا الشاعر الأخشيدي أبو هريرة بن أبي عاصم، عن حياته بدير القصير :

كم لى بدير القصير من قصف لهوت فيه يشادن غنيج  
مع كل ذى صبوة وذى ظرف يقصُر عنه بدائع الوصف (٢)

ويقول :

إن دير القصير هاج أدكارى وهو أيامنا الحسان القصار  
وكأنى إذ زرتُه بعد حجر لم يكن من منازل وديارى  
إذ صعودى على الجياد إليه وانحدارى في المنشآت الجوارى

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . لابن فضل الله العمري ص ٢٦٢ ، ح ١ . ط القاهرة ، ١٩٢٤  
(٢) خطط المقرئى ح ٤ مصر ، ١٣٢٦ هـ . ص ٤٩٠ . وقد ذكر الثعالبي اسمه مضبوطاً بالشكل في يتيمة الدهر ح ١ ص ٣٦١

منزلاً لستُ محصياً ما بقلبي      وانفسى فـيه من الأوطارِ  
منزلاً من علوه كسماءٍ      والمصاييحُ حوله كالدرارى (١)

ويعرض لنا الشاعر ابن البصرى جانباً آخر من حياة هذه الأديرة التى أقيمت بعيداً عن ازدحام السكان وأعين الناس، فأصبحت مقصد طلاب المتع والتزه فى الخلاء وهواة الصيد إلى جانب متعة الشراب أو الجنس.

أديرُ « نهيا » (٢) ماذكرتك ساعة  
والدهرُ غرضُ والزمانُ مُساعدُ  
ياديرُ « نهيا » إنْ ذُكرتْ فإنتنى  
وإذا سُنِّلتْ عن الطيورِ وصنيدِها  
كمْ قدْ صبوتُ بفرقتى فى شِرتى  
وخلعتُ فى طلبِ المجوزِ حبايلى  
إلا تذكرتُ الشبابَ بمفرقتى  
ومقامنا ومبيتنا بالجوسقِ  
أسعى إليك على الخيولِ السُّبُقِ  
وجنوسها فاصدقْ وإن لم تصدقِ  
وقطعتْ أوقاتى برمى البندقِ  
حتى نُسبِتُ إلى فعالِ الأخرقِ (٣)

وتعكس لنا بعض أشعار الأديرة خفة الروح المصرية التى تلمحها فى أبيات ابن

البصرى:

أتنشطُ للشربِ ياسيئدى  
فعدنى لك اليومَ مشوئتان  
أتنشطُ عفدى على نبتتين  
ونقصيدُ نهياً وديرا لها  
ونشرب فيها برطسلٍ وجام  
فعدنى خشفُ رخيمِ الدلالِ  
فيومك هذا دَقِيقُ الدرودِ  
سرقتهما من دجاجِ العجوزِ  
على لوزتين ، على قطر ميزِ  
به منبتُ السوردِ والمر محوزِ  
وطاسٍ وكأسٍ وكوبٍ وكوزِ  
نشا فى التعميمِ وإيسِ الخروزِ (٤)

- (١) الديارات . لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى . ومة ١٢٩ - ١٣١ .  
(٢) دير نهيا : كان بالقرب من الجيزة وقال عنه ابن الفضل الله العمري أنه أطيب مواقعها هواء وهو عامر برهبانه وسكانه وله فى النيل منظر عجيب . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ج ١ ص ٣٦٢  
(٣) الديارات . لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى . ورقة ١٢٩ - ١٣١  
(٤) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري . ج ١ . ص ٣٦٢ . مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

ولقد أوحى الأديرة إلى روادها من الشعراء صوراً بديعة من ألوان التعبير، امتزج فيها وصف الشعور بالبيئة الطبيعية، فالشاعر محمد بن عباس البصرى يستلهم أبياته الآتية من وقفة في دير مارحنا (١) . وهي تعكس مايعانيه من حرقة الجوى ولوعة الشوق، وقد عكس هذه المشاعر على الورود التي رآها في ذلك الدير، كما تبين في نظرة الورد إلى أترابه، وبما في أجفان النرجس من دموع تقاطر :

يا حامل الكأس أدركها واستقني	قد دَعَر الشوقُ فزادى فاندعرُ
أما ترى البركة ما أحسنها	إنْ تداعى الطيرُ فيها فصفرُ
وأبيضُ النرجسِ في أجفانه	دمعُ الندى لولا التُّشاجى لقطرُ
دعنى فما أهلكُ إلا بالجوى	ما عيشةُ العاشقِ إلا في كدرُ (٢)

ويستوحى ابن أبي عاصم المصرى من دير طمويه (٣) هذه الصورة المعبرة عن جمال الطبيعة المصرية، واستمتاع الشعراء بملذات الحياة في الأديرة المنتشرة في ربوع وادي النيل.

واشربُ "طمويه" من صهباء صافية	تُزرى بخرمِ قرى هيت وعانات
على رياض من النوار زاهرة	تجسرى الجداولُ فيها بين جنات
كانُ نبت الشقيقِ العصفريُّ لها	كاساتُ خمرٍ بدتُ في إثر كاسات
كانُ نرجسها من حُسْنِها حَـدَقُ	في خَفِيَّةٍ يتناجى بالإشارات
كأنما النيلُ في مرِّ التَّسِيمِ به	مستلثمٌ في دروعِ سابريات
منازلُ كنتُ مفتونا بها شففا	وكنُ قَدِماً مواخيرى وحاناتى
اذ لا أزالُ مُلِحاً بالصَّبوحِ على	ضربِ التواقيسِ صبياً بالديارات

(١) دير مارحنا : كان على شاطئ بركة الحبش وبقره بئر توت تعرف ببني نجاتي عليها جميزة يجتمع عندها الناس ويشربون . وقد ضبطه فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار - ج ١ - ص ٣٦١ . (مريحتنا) .

(٢) يتيمة الدهر . للإمام أبي منصور عبد الملك الثعالبي . ص ٣٧٩ . ج ١ . ط ١٩٣٤ .

(٣) طمويه : بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو وياء ساكنة . قريتان بمصر إحداهما في كورة المزناحية والأخرى بالجيزة . قال الشابشتى وطمويه في الغرب بإزاء حلوان ، والدير ركب البحر حوله الكروم والبساتين والتخيل والشجر، وله في النيل منظر حسن وهو أحد متنزهات مصر ومواضع لهرها المشهورة . خطط المقرئى . ج ٤ ص ٤١٤ ط مصر ، ١٣٢٦ هـ .

وقد سجل الأدب المصرى الذى أوجت به هذه الأديرة بعض المعتقدات الدينية التى كانت تسود بين النصارى، فمما يرويه المقرئى أن النصارى يزعمون وجود نار بدير القصير من النار التى كانت ببيت المقدس، يغنون منها فى كل عيشة وهى بيضاء ضعيفة الحر لاحتراق، ثم تقوى إذا أوقدتها السراج (١). وقد أشار ابن عامر إلى هذه الظاهرة فى الأبيات التالية :

ياراهب الدير ماذا الضوء والنور      لقد أضاء بما فى ديرك الطور  
هل حلت الشمس فيه نون أيرجها      أو غيب البدر فيه وهو مستور  
فقال ما حله شمس ولا قمر      لكن تقرب فيه اليوم قورير (٢)

ولقد لعب فن المجون دوره فى الأدب العربى، وظهر فى صور مختلفة منها الدعوة إلى التمتع باللذات ومنها التفاخر بالمعاصى، ومنها التعريض بالدين، فأى لون منها تستجيب له طبيعة الشخصية المصرية ويناسب خصائصها والشخصية المصرية - كما سبق - محبة للتدين متمسكة بالموروث من التقاليد، وفى الوقت نفسه، محبة للحياة بما فيها من لهو ومتع، فلاغرابة أن يمثل النهو والمجون جانباً فى أدبها، أما السخرية من الدين أو التهكم به، فهو أمر غريب على المصريين، ومع ذلك نراها فى أبيات (سعيد بن فاخر) أحد شعراء ؟ الأخشيد والمعروف بقاضى البقر حين يقول :

حس على الكأس فى الصباح      مطرحاً نصح كل لاح  
وانتهب العيش ماتتسى      فانت منه على جناح  
وأجرنى من عقول قوم      عموا عن الشرب والملاح  
يارب دعنى بلا صلاح      يارب نرنسى بلا فلاح  
يدى مدى الدهر فوق ردف      وراحتى تحت كأس راح (٣)

فالشاعر لا يكتفى بالدعوة إلى الشراب، ولا ينصحها لنا بتناولها قبل فوات العمر، وإنما يتعمد فى مجونه إلى مخاطبة الإله لا تائباً ولا مستغفراً، بل مستهترا ماجناً متحدياً، وهذه الروح بعيدة عن طبيعة الشخصية المصرية، ويبدو أن عصبية أبى نواس وأمثاله من مجان بغداد فتقوا بمذهبهم الشعرى الجديد بعض الشعراء المصريين.

(١) (٢، ١) خطط المقرئى . ج ١ ص ١٢ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب . لابن سعيد ص ٢٧٢ ج ١ ط . جامعة فؤاد الأول . مصر ١٩٥٢ م .

ولم يكن قاضى البقر<sup>٢</sup> وحده فريداً فى هذه السخرية، فالشاعر أبو هريرة أحمد بن أبى العصام من شعراء النحلة الإخشيدية يسير فى هذا الاتجاه، بل كان أشد تهكماً وسخريةً بدينه من زميله، فها هو يصف مجلس الشراب بقوله :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به      غير مُصَلِّ بلا وضوءٍ وطُهرٍ  
سُجْدٌ للكُفوسِ من دونِ      تسبيحٍ سوى نعمةٍ لعودٍ وذريرٍ  
أنا أشهى الأنامِ فى مثلِ ذا      المجلسِ لا مجلسَ نهرٍ وأمرٍ<sup>(١)</sup>

وهذا الاتجاه تفسره لنا نزعة التقليد التى انتهجها شعراء مصر، وساروا عليها، فلا شك فى أنهم حاولوا أن يترسموا خطى كبار الشعراء ومن بينهم أبو نواس الذى زار مصر وتأثر به أدباؤها :

## ٥ - الغزل :

عندما أخذت بواكير الشخصية المصرية تتجلى فى الأدب كان فن الغزل فى الشعر العربى قد مر بأطور تعيزت عندها الثلاثة ألوان : الغزل الحسى، والغزل العفيف، والغزل بالغلما ن .

وكانت غلبة لون من ألوان الغزل فى عصر من العصور أو بيئة من البيئات تعبيراً صادقاً عما ساد فيها من قيم سياسية أو اجتماعية، وأصبح بذلك مرآة للشخصية تبدو من خلاله السمات القنية أو الروح العامة التى غلبت على الأدب .

وقد شهدت هذه المرحلة نماذج من فن الغزل المصرى منها ما وصف فيه ابن طباطبا علاقته بمحبوبته التى تعيره بالنوم ولو كان محيا حقيقة لرافق السهاد ولكنه يدافع عن نومه، لأنه يرجو أن يسعد من خلاله باللقاء

عيرتنى بالنوم جُورا وتُلما      قلتُ : زدتِ الفؤاد هماً وغمأ  
لم أنم لذة، ولا نمتُ إلا      طمعا فى خيالك أن يلما<sup>(٢)</sup>

ووقف جعفر بن حذار الشاعر المصرى وكاتب ابن طولون يحاكي شعراء بغداد فى

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ج ١ ط جامعة فؤاد الأول مصر ، ١٩٥٢ ص ٢٧٢

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٢٧

وصف القيان، وقد أعجبتة قينة وأثارته بمفاتن جسمها وجمال وجهها وعنوية صوتها فقال :

جادت بوجه كآته قمرُ      على قوام كأنه عُصْنُ  
ترنو بعينين من ليسانهما      من وسن في جفونها وسنُ  
غئتُ فلم يبق في جارحة      إلا تمئت لوأنها أذنُ (١)

ويقول :

كم بين نادى وبين لما      وبين بون إلى ذما  
من رشاً أبيض التراقى      أغيد ذى غنة أجما  
وطفلة رخصمة المرائى      ليست تجلى ولا تُسمى  
إلا وسلك من اللالكى      تُعجز من يخرج المعى  
صفرى وكبرى إلى ثلاث      وأرض برم وأرض رما  
من طفلة بضبة لعوب      تلقاك بالحسن مُستتماً  
منهن ربا وكيف ربا      ربا إذا لاقت المشما  
لوشمها طائرُ بدو      لخرفى الترب أولهما (٢)

وإذا تأملنا هذه النماذج من فن الغزل رأيناها عاجزة عن تصوير الشخصية المصرية، فهي لاتعبر عن الروح المصرية التي عرفت بتدليلها المرأة وتكريمها تكريماً أثار اهتمام دراسى تاريخها منذ أقدم العصور، ولا ينتزع صوره أو تشبيهاه من البيئة المصرية، ولا يصف العلاقة بين الرجل المصرى والمرأة المصرية سواء من الناحية الحسية أو المعنوية. وقد دخلت أفكارهم من الجديد الذى يمكن نسبته إلى البيئة المصرية بل جاء فى بعض معانيها فتور إذا قورنت بالمعانى التى ردها من قبل بعض الشعراء الكبار . فقول ابن طباطبا :

لم أنم لذة ولا نمت إلا      طمعاً فى خيالكم أن يلما  
مسيوق بقول المجنون :

وأنى لأستقشى وما بسى نعسة      لعل خيالاً منك يلقى خيالياً

(١) معجم الأدياء لياقوت مصلحة الموسوعات العربية القاهرة تحقيق وزارة المعارف حـ ص ٢٨٥

(٢) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، حـ ٢ ص ١٢٦ .

ولعل البيت الثانى أصدق فى تصوير حالة المحب المستغرق فالمجنون لم ينم وإنما استغشى، وفى النوم راحة البلاد، وفى الاستغشاء هزة المرض. ورعشة المحمومين والمجنون ينفى النعاس لأن فيه اختياراً، والاستغشاء فيه غلبه، والمحب الصادق مغلوب على أمره أكثر منه مختاراً ينام كيف ومتى يشاء، والمجنون يرجو أن يلتقى بخيال ليلاه، وابن طباطبا يطمع أن يلم خيال حبيبته به، وفرق بين الرجاء والطمع وبين إلمام الخيال، وتعانق الخيال بالخيال فى سبحات حالة.

ولعل "ابن حذار" فى أبياته التى وصف بها قينته كان مقلداً لهذه النزعة الجديدة التى ظهرت فى العصر العباسى من وصف القيان، بعد أن أصبحت تجارتهن منتشرة فى العصر العباسى، وساعد الثراء على انتشارها.

وأكاد أحس ترديد المعانى التى قالها ابن الرومى فى وصف المغنية (وحيد)، وأبيات (جعفر بن حذار) السابقة متكلفة سقيمة لانتمت إلى خفة الروح المصرية بصلة، ويؤيدنى تقديم ابن عبد ربه لهذه القصيدة بقوله: وقد يأتى من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء منفرد فى غرائبه (١).

## ٦- المديح :

لم يتل غرض من أغراض الشعر العربى اهتماماً مثل ما تاله غرض المديح، فقد كان هدف الحكام والسلاطين، ومصدر أرزاق الشعراء، ومن ثم فإن معظمهم طرق باب المدح كل على قدر جهده وإمكانياته، وربما كان اهتمامهم بهذا الفن على حساب غيره من الفنون الأخرى، ونظراً لارتباطه بالسلطة الحاكمة فإنه سجل كثيراً من الأحداث التى تنور فى هذا المحيط وخاصة الأحداث السياسية.

ومن جهة أخرى، فإن هذا الفن عبر عن بعض الخصائص الإقليمية فى عصر من العصور حيث أشاد بالقيم الفاضلة ومدح بها، كما وصف القيم الرذيلة ونفاها عن المدح، فإذا لاحظنا أن هذه القيم كانت مختلفة باختلاف العصر والبيئة أدر كنامدى تصوير هذا الغرض لبعض سمات الشخصية.

---

(١) المرجع السابق

وعلى ضوء ماتقدم نستطيع أن نتأمل الشخصية المصرية فى فن المديح خلال هذه المرحلة فالشاعر (منصف بن خليل المعازلى) يرسم فى مدائحه لابن طولون خريطة لحدود مصر السياسية الممتدة إلى برقة والشام والحجاز فى قوله :

ياغرة الدنيا الذى أفعأله      غررَ بها كل السورى تتعلقُ  
أنت الأميرُ على الشام وثغرها      والرقتين وماحواه المشرقُ  
واليك مصرُ وبرقةٌ وحجازُها      كلُّ إليك فؤاده متشوقُ (١)

وقد عكس هذا الفن بعض القيم الى اعتزت بها الشخصية المصرية ومن أهمها القيم الدينية (فقدان بن عمر) يمدح ابن طولون قائلا :

حاطَ الخلافةَ والدنيا خليفتنا      بصارم من سيوفِ الله صنصام  
يا أيها الناسُ هبوا ناصرين له      مع الأميرِ بدْهم الخيلِ فى اللام  
ليست صلاةٌ مصلئكم بجائزةٍ      ولا الصُيامُ بمقبولٍ لصيام  
حتى يرى السيدُ الميمونُ نُبكمُ      عن الإمامِ بأطرافِ القنا الدامى (٢)

ومهما تكن قيمة الشعر فى هذه المرحلة المبكرة فإنه يعد باكورة الأدب العربى الذى اتخذ لنفسه عدة مسالك عبر خلالها عن ميلاد الشخصية المصرية فى الأدب العربى، فسجل كثيرا من الأحداث السياسية الاجتماعية التى وقعت فى هذه الفترة، ونأى عن استخدام الأساليب الشعرية التى سادت فى العصر الجاهلى والأموى، واستوحى بعض صوره وأفكاره من البيئة الطبيعية والاجتماعية فى مصر.

والحق أن أدب هذه المرحلة لم يصور البيئة المصرية تصويرا كاملا فقد نجد أسماء بعض الأماكن المصرية، واسم مصر نفسها، ولكنه لا يتجاوز سرد الأسماء، وأما النيل فكان وحيه ضعيفا إلى الأبناء على الرغم من قوته وسحره وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام .. ويتسائل الدكتور عبد الرازق حميده عن السر فى عدم تعلق الأدب العربى المحض بالآثار والعجائب التى كانت معروفة بمصر والتى تحدثت عنها كتب التاريخ، وروى المسعودى

(١) الولاة للكندى ص ٢٢٨

(٢) الولاة للكندى ص ٢٢٧ .

كثيرا من أخبارها؟ ولماذا لم يقف عندها شعراء العرب باكين الأطلال والدمن؟ وما عذر الطولونيين ومن بعدهم في إهمال أدب الآثار القديمة؟ بعد أن رأوا ما ظهر منها وكشفوا كثيرا مما بطن، وكان عندهم المثال الذي يسيرون على طريقته وهو سينية البحتري في وصف إيوان كسرى وغيرها؟

ويجيب على ذلك بقوله :

إن الأدب العربي المحض كان أسير التقاليد فلم يتجه إلى وصف الآثار القديمة مع كثرة مارأى العرب منها في مصر والعراق والشام والأندلس، ولم يشغل الأدياء أنفسهم بوصفها أو الاعتاظ بها، ولم يتركوا شيئا من الأدب حولها إلا ناسرا ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفا تثيره فكريات الأحباب وماضى الشباب، وبلى الأطلال وارتحال أهل الديار. أما هنا فالآثار أُلغاز وطلاسم لا يفهمون أسرارها، ولا تثير عواطفهم عند رؤيتها، ولا يتصل تاريخهم بها لأنهم غرباء وفدوا عليها للمديح وما وراءه من عطاء، بل إن بعضهم كان يعد قصائده قبل أن يراها. (١)

حقا إنهم وقفوا على بعض الآثار التي شهدوا عجزها وذلتها ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها، وظهر ذلك في رثاء "ابن نافع" للدار المذهبية التي كانت لآل عبد العزيز بن مروان. وما مر من رثاء دولة الطولونيين وآثارهم، ولكن وقوفهم على تلك الآثار كان شبيها بالوقوف على الأطلال فكان ما أصابها داعيا إلى بكائهم والدهشة لما كانت تحويه من سحر وعبقرية وشبه ذلك.

---

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين : د. عبدالرازق حميدة ص ٢٧٥ .

## الفصل الثالث

### ظهور بواكير الشخصية المصرية فى النثر

ميلاد النثر العربى بمصر :

عرفت مصر النثر مقترنا بالإسلام، ومع انتشاره فى البيئـة المصرية انتشرت العلوم الدينية، وما يتصل بها من دراسات منظومة أو مدونة بأسلوب نثرى. ومنذ أصبحت مصر إمارة إسلامية وبها ديوان البريد، ولبعض أمرائها كتاب ينشئون لهم الكتب (١). وكان بمصر بعض الخطباء البلقاء أمثال عمرو بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة وعتبة بن أبى سفيان وغيرهم. وظهر فى مصر عقب الفتح الإسلامى لون من القصص الدينى متصلا بتفسير القرآن وسيرة الرسول (ص). وأول من قص بمصر هو سليم بن عتر التجيبى، الذى تولى القضاء بمصر فترة طويلة، واتخذ من مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط مركزاً لنشاطه منذ عام ٢٩ هـ (٢). ومع ذلك فإننا لا نلتقى ببواكير الشخصية المصرية فى النثر العربى إلا بعد أن تطوى قرنين ونصف قرن من تاريخ مصر الإسلامى. فالنثر العربى الذى استخدمته النواوين الرسمية والذى استخدمه العلماء المسلمون طوال القرنين الأول والثانى الهجرة فى مصر لم يكن نثراً فنياً .. وإنما عرفت مصر هذا اللون من النثر فى عصر الطولونيين على يد الكاتب المعروف "ابن عبد كان". ولم ينصهر موروث مصر من الفن القصص فى بوتقة النثر العربى، فالأدب المصرى قبل الإسلام غنى بالقصة، غنقه روافد الحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية والقارسية والمسيحية، ومع ذلك لم يقبل العرب على هذا الفن.

ويبدو أن موضوع هذه القصص لم يشد انتباههم إليها، وبعضها لم يجد طريقه إليهم، كالقصص الفرعونية المدونة بالهير وغليفية والديموطيقية إذ لم يكن هناك من يقرؤها، وبعض القصص المصرية كان مستقراً فى المقابر وعلى جدران المعابد بلغاتها الفرعونية القديمة، وبعضها الآخر كان فى أذهان المصريين وعلى أفواههم، لكن المسلمين عجزوا عن معرفة المكتوب وأهملوا شأن المتناقل شفاهة.

(١) خطط المقرئى حط بولاق، ص ٢٦٦.

(٢) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين، د. عبدالرازق حميدة ص ٥٤.

ومن القصص المصرى قبل الإسلام ما كان مدونا بلغات معروفة كالقصص القبطى المكتوب باليونانية أو الرومانية، ولكن قراء هذه القصص لم يكونوا عربا، ومن كان يعرف هذه اللغات من العرب على قلتهم كان يقرأ لنفسه لالترجمة. وكان العرب يعتزون بأدبهم، فم يكونوا بحاجة إلى ذلك الأدب الذى لايلانم أمزجتهم، خاصة وأن فى بعضه رائحة الوثنية أما القصص الشعبية التى كانت شائعة عند عامة الشعب فكان طريقها إلى الأدب العربى أن تترجم وتحكى فى ندوات أو أسمار ولعل شيئا من ذلك قد حدث، ولكن الأدب العربى نفسه فى مصر لم يلق كثيرا من اهتمام الرواة إلا فى ظروف خاصة ولم تكن لتلك القصة قيمة أدبية تجعل رواية الأدب يحرصون على تدوينها فى عصور التنوين. كما لم يهتم العرب كثيرا بهذه القصص فى أى بلد من البلدان التى فتحوها، لا فى فارس ولا الروم ولا المغرب ولا الأندلس، حتى إذا تبع من أبناء تلك الأمم من يجيد العربية، ويهتم بأدب قومه كابن المقفع وسهل بن هارون عنوا بترجمة قصصهم وأساطيرهم وتاريخ بلادهم (١).

وظل فن القصص المصرى واقفا عند حدود الوعظ الدينى، وما قد يتخلله من أهداف سياسية حتى طالعا العصر الطولونى بمحاولات قصصية ضمنها الكاتب أحمد بن يوسف بن إبراهيم المشهور بابن الداية كتابه 'المكافأة'، وقد تخير قصصه من أمم وعصور وبيئات مختلفة، واشتملت على أخبار السادة والعامة وصورت بعض ملامح عصرها.

ومنذ العصر الطولونى - أيضا - أخذ المصريون يمارسون فن السير الذى يعتمد على رواية حوادث وقعت لصاحب السيرة لإبراز شخصيته أو جوانب منها .. وهو فن مصرى عرفته مصر منذ عهد الفراعنة، وظهر فى العهد القبطى مسجلا فيما تركه البطارقة من سير الآباء والقديسين السابقين. وظهر هذا الفن واضحا فى مصر الإسلامية، فكتب (ابن الداية) سيرة أحمد بن طولون، وسيرة ابنه أبى الجيوش، وكتب (ابن زولاق) سيرة كافور الأخشيدى وسيرة سيويه المصرى وغيرهما.

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين . د . عبدالرازق إبراهيم حميدة ص ٧٢ .

# مظاهر الشخصية المصرية وآثارها في فنون النثر

## ١- الرسائل :

صورت الرسائل الديوانية بعض الجوانب السياسية في الشخصية المصرية، من ذلك :

ثورة العباس على أبيه أحمد بن طولون<sup>(١)</sup> ، فقد انتهز العباس فرصة خروج أبيه من مصر مع جيشه إلى بلاد الشام فثار عليه، ولما علم بقدم أبيه خرج مع أعوانه إلى (برقة)، وحاول ابن طولون أن يستميل ابنه فكتب إليه كتاب الأمان، وبعث إليه وفدا يدعوه إلى الرجوع ويلاطفه، وكاد الوفد ينجح في مهمته ولكن بعض أعوان العباس زينوا له التمرد. وكتب العباس إلى أبيه من إنشاء ابن حذار رسالة جاء فيها :

"إلى الأمير أبي العباس أحمد بن طولون، مولى أمير المؤمنين، من عبد الله مولى الله المتمسك بمناجى طاعة الله، المنحرف عن زيغ ظلم المعصية إلى وضوح سر البصيرة، القابل من الله مواعظته، والعامل بما أمر به، إذ يقول جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين"، وقوله عز وجل: "ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه".

سلام على الأمير، وعلى من استرجع وأدكر، وفكر وأزدجر، فأنا أحمد إلى الأمير الله لا إله الا هو، العاطف بى إلى أرفع سنن الهداية، والعاذل بى عن ظلم سفه الجهالة، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليه وخيرته من صفوته ورسوله صلى الله عليه وسلم. أما بعد، وفق الله الأمير لحال رشده، وجنبه مقابح أمره، وسخرله الخلق عن غامض ذكره، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائد منه عن سبيل العظة والتذكير إلى سبيل التهديد والتحذير، فبعد وقرب وأنس وهدد، وجمع وفرع، يبذل من نفسه باليسير فيها ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها، ويعرض من ماله للأنفس ويصير من خطابه الأثر، ويعدد من واجب حقه ولازم مفترضه ما اعترف به مصدقا لمن اعترف بالطاعة محققا ... إلخ<sup>(١)</sup> .

وقد أثارت هذه الرسالة أحمد بن طولون فكتب إليه الرسالة التالية من إنشاء كاتبه (ابن

عبد كان) :

(١) انتهت هذه الثورة بقتلها سنة ٢٦٨ هـ وبسببها قتل الكاتب ابن حذار .

(٢) سيرة أحمد بن طولون . تأليف أبي محمد عبدالله محمد الميمني البلوى . تحقيق محمد كردغلى . دمشق ،

١٢٥٨ هـ . ص ٢٥٦

من أحمد بن طولون، مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه العاصى لربه، المسلم بذبنيه، المفسد لكسبه، العادى لظوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبه، المركوس فى فتنته، المنحوس من حظ دنياه وأخرته. سلام على كل منيب مستجيب، تائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم، وحلول الفتور والندم. وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، والطول الجليل، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه، مجتهد فى دعائه. أن يصلى على محمد المصطفى، وأمينه المرتضى ورسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم (أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تثير المدينة بقرنيها، والنحلة يكون حقتها فى جناحيها، وستعلم - هبلتك الهوايل - أيها الأحمق الجاهل، الذى ثنى على الفى عطفه : وأغتر بضجاج المواكب خلفه - أى موردة هلكتة بإذن الله توردت، إذ على الله جل وعز تمردت وبشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً تقرية كانت أمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون "وإننا كنا نقربك إلينا، وننسبك إلى بيوتنا، طمعاً فى إنابتك، وتأميلاً لفيتنك، فلما طال فى الفى انهماكك وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم تر الوعظة تلين كيدك، ولا التذكير يقيم أودك، لم تكن لهذه النسبة أهلاً، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحللاً.

وليت شعربى على من تهول بالجنود، وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك، الباذلون دماغهم وأموالهم وأديانهم دونك تون رزق ترزقهم إياه، ولا عطاء تدره عليهم. فقد علمت - إن كان لك تعبير، أو عندك تحصيل - كيف كانت حالك فى الواقعة التى كانت بناحية طرابلس، وكيف خذ لك أولياؤك والمرتزة معك حتى هربت، فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك، ولا رزق لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانتك، فانهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك، وإنهم لأحرى بخذلك. والميل إلينا دونك، ولو كانوا جميعاً معك، ومقيمى على نصرتك، لرجونا أن يمكننا الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم، ويجرينا من عادته فى النصر وعزاز الأمر على مالم يزل يتفضل علينا بأمثاله، ويتطول بأشباهه" (١).

وكما سجلت رسائل هذه الفترة طرفاً من الفتن الداخلية فإنها أعطتنا صورة عن العلاقات الخارجية التى كانت موجودة بين ملك الروم ومحمد بن طغج الأخشيدى، فقد بعث

(١) صبح الأعشى ج ٧ ص ١٠ وما بعدها ، وسيرة ابن طولون ، ص ٢٩٠ وما بعدها

الأخشيدي على لسان كاتبه محمد إبراهيم بن عبد الله النجيرمي إلى أرماتوس ملك الروم رسالة يقول فيها :

"من محمد بن طفيج مولى أمير المؤمنين إلى أرماتوس، عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أنتم له مستحقون، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة، وما نعى عنا إليك، وصح عن شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول من ذكر الغداء، والتوصل إلى تخلص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه. فأما ما أظنبت فيه من فضيلة "الرحمة"، فمن سيد القول الذي يليق بنوى الفضل والنبل، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواصلون وعاملون، وإياه نسال التوفيق لمرشد الأمور، وجوامع المصالح بمنه وقدرته. وأما ما نسبت إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإننا نرغب إلى الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة، وهبها لأولياته، ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها : ويجعلنا من أهلها، يبسرنا للاجتهد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها، ووعورة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به، وأحق حقا بما دعوتنا إليه، ومن يستحق الزلفى من الله تعالى فإننا فقراء إلى رحمته، وحق لما أنزله الله بحيث أنزلنا وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا، بمولانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك، وتوفيقه وإرشاده، فإن ذلك إليه ويده "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" (١) .

وقد تميزت رسائل هذه المرحلة بخصائص أهمها :

(١) - بدء الرسالة بالدعاء غالبا : وهي على أنماط منها الدعاء بطول البقاء وما في معناه، كالدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة، ومنها الدعاء بكبت العدو، وغير ذلك من الأمور وقد صدر (ابن عبد كان) إحدى مكاتباته بهذا الدعاء.

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٦٠ وما بعدها

أطال الله بقاءك ففى إطالته حياة الأنام، وأنس الأيام والليالى، وأدام الله عزك ففى إدامته دوام الشرف ونمو المعالى. وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق، ونزلت منزلة الاستيجاب ووقفت على من لا تكون الآلاء مكانه، ولاتنكر الفواصل محله<sup>(١)</sup>.

ويقدر الدكتور محمد حسين أن هذه الطريقة لم تكن معروفة من قبل فى النثر العربى، وإنما وجد نظيرها إبان القرن الثالث الهجرى عند الكتاب العراقيين.

(ب) - المبالغة فى العناية بالأسلوب. وقد وضع هذا الاتجاه فى الكتابة المصرية منذ العصر الطولونى واستمر فى ازدياد طوال العصور اللاحقة، ويعمل الدكتور محمد كامل حسين هذه النزعة فى الأسلوب بتأثر الأدب المصرى بالأدب اليونانى ويذكر أن مصر كانت يونانية قبل الإسلام وانتشر بها الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية، ولاشك أن هذه الدراسات تركت أثر فى العقلية المصرية دام عدة قرون فاستقر فى البيئة المصرية، مع أننا لانجد من بين المصريين من اهتم بكتب الفلسفة اليونانية كما اهتم غيرهم، وأيضاً لم يقبل المصريون على الفلسفة اليونانية فى مصر الإسلامية إقبال غيرهم عليها. ويشير إلى تشابه طريقة الكتابة المصرية والعراقية ممثلتين فى مدرستى (ابن عبد كان) و"الجاحظ". وأن (ابن عبد كان) كان يقسم رسائله إلى أجزاء وفصول ويميل إلى الإطناب الذى لا يبلغ حد الملل والثقل. ويقحم الدعاء حشوا معترضاً فى كلامه ويتوجه إلى المخاطب بصيغة الفرد دائماً ويزين جملة القصيرة بالسجع غالباً<sup>(١)</sup>.

ويبدولى أن طريقة الكتابة المصرية التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى بأسلوب عربى يحاكي فى قوته أسلوب الكتابة العربية فى الأقطار الأخرى بل وفى عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها ليس أثراً مباشراً من آثار الثقافة اليونانية كما ذهب الدكتور محمد كامل حسين، وإنما امتداد لتأثر الحياة الأدبية فى مصر بالثقافة العربية الوافدة من الحجاز والشام وبغداد، وإذا كانت هناك آثار لأية ثقافة أجنبية فى اللغة العربية فإن مصر قد تلقتها فى إطار الحضارة العربية الوافدة.

ولم تنشأ الكتابة اللبوانية فى مصر نشأة تدريجية كالشعر مثلاً. ولو كان تأثير الثقافة اليونانية فى الأدب العربى قد تم فى البيئة المصرية لظهر أثره تدريجياً مبتدئاً بالتعرف على

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى د محمد كامل حسين ص ١٠١

(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين ص ٩٥

هذه الآراء ثم نقلها إلى اللغة العربية. وبعد ذلك يأخذ التأثير صورا بسيطة حتى تتضح ملامحه فيما بعد كما حدث مثلا في العصر الحديث عندما أخذت فنون أدبية أجنبية دورها بين صفوف أدبنا العربي كالفن المسرحية وغيرها .

وإن أسلوب مدرسة "ابن عبد كان" المصرية أقرب - في نظري - إلى خصائص مدرسة عبد الحميد الكاتب، وليس إلى خصائص أسلوب الجاحظ، فقد نلاحظ على الثلاثة احتفاهم بعنصر التطويل والتنسيق ولكن الإطالة عند الجاحظ كثيرا ما تخرج به عن موضوعه الأصلي، ويطيل إطالات قد يشعر هو نفسه بذلك فيعترض عنه وفي كتاب "الحيوان" صور مختلفة لهذه الظاهرة.

أما عبد الحميد الكاتب، وابن عبد كان فكانت إطالتهما مرتبطة بالموضوع، ومن ناحية أخرى فإن صلة عبد الحميد الكاتب وأحفاده بالبيئة الأدبية المصرية أوثق من صلة الجاحظ بها، فقد سبق القول بإسهام بعض أحفاد "عبد الحميد الكاتب" في تنمية الحياة الأدبية في مصر بعد مقتل عبد الحميد بها واستقرار أسرته فيها (١) .

إن الشخصية المصرية تعبر عن أصالتها الثقافية بعدة وسائل من بينها عنصر الاختيار والتمصير وقد مارست مصر هذا العمل منذ بداية احتكاكها بالأدب العربي.

وأرى أن الدافع الذي جعل الدكتور محمد كامل حسين يرد خصائص الكتابة الفنية في مصر إلى التأثير اليوناني الذي ساد في البيئة العلمية المصرية منذ عصر البطالسة هو حرصه على إثبات أصالة الشخصية المصرية في أدبها وأن مميزات نبت أصيل من وحى البيئة ومؤثراتها الثقافية. ولعل حرصه على إثبات هذه الفكرة دفعه إلى المقارنة بين خصائص الكتابة المصرية والكتابة العراقية خاصة وأنه قد وجد تشابها ما بين سمات كل منهما واستثنى تأثير الثقافة الفارسية في أسلوب الكتابة العربية، مع أن كثيرا من الدارسين يشيرون إلى تأثير هذه الثقافة الأخيرة في الأدب العربي، بل يجعلونها أساسا في تطوير أسلوب الكتابة الديوانية التي ظهر بها عبد الحميد الكاتب وإن كان الأستاذ أنيس المقدسي

---

(١) راجع هذا الكتاب ص ٧١ .

يخالف هذا القول، ويرى أن تطور أسلوب عبد الحميد الكاتب تطور طبيعي للكتابة العربية في هذه المرحلة من تاريخها (١) .

وقد نسب دارسو النثر العربي إلى القاضى الفاضل ومن سار على نهجه مدرسة متميزة فى الكتابة الديوانية، وعلوها مرحلة جديدة من مراحل تطور أسلوب الكتابة العربية ولكن الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور شوقى ضيف يذهبان إلى أن هذه الطريقة التى نسبها كثير من القدامى والمحدثين إلى القاضى الفاضل، ليست جديدة كل الجدة على الكتابة المصرية، بل إن أصولها ممتدة إلى البراعم الأولى من الكتابة المصرية فى النثر العربى، فالقاضى الفاضل لم يأت بجديد يستحق به أن تنسب إليه مدرسة أو يقام له مذهب ، ولم يكن فى كتابته إلا تلميذاً وفيها للمدرسة .. التى نشأ فيها على أيدي كبار كتاب العصر الفاطمى، ولم يكن هؤلاء سوى محاكين للمدرسة الأولى التى أبدعها فى مصر "ابن عبد كان" مع شىء من التطوير لم يخرجها عن أهم خصائصها، وجوهر سماتها التى بها ميزها الناقدون عن غيرها من المدارس (٢) .

## ٢- القصص :

من خلال المجموعة القصصية فى كتاب المكافأة تلتقى ببعض ملامح الشخصية المصرية وخاصة الجوانب الاجتماعية والنفسية.

فقد صورت إحدى القصص حالة الغلاء واضطراب الرعية بسبب أزمة وقعت فى زمن أحمد بن طولون، وأنه ركب، وتقدم لمعاينة القماحين وازدحمت النظارة من السطوح عليه. ونرى فيها صوراً من عادات الناس وأخلاقهم، وكاهتمام قابلة أولاد خمارويه بحلول العيد من أجل صبيانها، وذهابها إلى أختها كى تقترض منها مالاً تشتري به هذه الحلوى وفيما يلى تتجلى الشخصية المصرية من خلال هذا الفن القصصى :

وقال ابن الداية : حدثنى أحمد بن سقلاب قال : كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم وله حلقة عظيمة بالجامع. فبينما هو فى صدرها إذ وافى علان بن المغيرة، فلما رآه مقبلاً نحوه قام إليه على رجليه ثم خطا إليه حتى لقيه فأكبرت الجماعة قيام شيخ مثله إلى حدث مثل

(١) راجع تطور أساليب النثر العربى . أنيس المنسى . ١٤٨٠ وما بعدها لبنان ، ١٩٦٨ م

(٢) راجع : (١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى . د . شوقى ضيف .

(ب) أدب مصر الإسلامية عصر الولاة د . محمد كامل حسين . ص ١١٥ وما بعدها .

علان، وتحفيه به وعرض نفسه عليه، وإنه لم يدع شيئاً يفعله تابع بمتبوع إلا بذله، وأسررنا الموجدة عليه. فلما قام إعلان قال لجماعتنا ما أعلمنى بما أضمرتم ولكننى أرىكم عذرى فيما خرجت إليه :

كانت عندى ألف دينار وديعة لرجل بالمغرب، وقد طال مقامها، وطالب زوج ابنتى بإدخال امرأته عليه فجلست أمها بحضرتى. فقالت لى : ما الذى تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوز فقالت لى : لنا حساد تخاف شماتتهم، ولا بد أن تعيننى على هذا التجميل. فقلت : إن كان ماتريدين فى قدرتى لم أبخل به عليكم. قالت : هو فى قدرتك. قلت : ما هو ؟ قالت : تمكننى من هذه الوديعة ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه فى أى وقت أردناه، ويدخل هذه الصبية على زوجها فإن جاء صاحب الوديعة بعنا ما اشتريناه، ولم نضع فيه إلا مايسهل غرمة. قلت : هذا قبيح عند الله وعند خلقه.

فلم تزل تلح بى، وتحتال على حتى أجبتها. فجهزت ابنتها بجميع المال، وأدخلتها على زوجها. فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها. فقلت لها : ماتفعلين ؟ فقالت : امض فاحمل المتاع وبعه، فمضت إلى ابنتها ورجعت إلى فقالت : لا تشغل نفسك بهذا المتاع، فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لا يخرج منه شيء عن منزله.

فسقط فى يدي ورأيت الفضيحة فى الدارين متصدية لى . فوضع إفطاري بين يدي فلم أطعم واعتراضى ماخفت منه على عطفى، وبت ليلة مابت مثلها، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتى فى جنب ما أحرزته لبنتها. ثم انتهيت قبل الفجر بمنازل، فصحت بالغلام : أسرج لى. فقام وأسرج وقال : ياسيدى أين تمضى ؟ فقلت : ليس لك الاعتراض على . وركبت وسرت بطوع عنانى فلم يزل بغلى يسير حتى دخلت زقاق "علان بن المغيرة". فوقفت على باب داره وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعى فسمعت حركة فى داره، ثم فتح الباب وأذن لى بالدخول عليه فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جوابات كتب وكلائه. فلما رأنى قام إلى، وقال لمن حضره من القلمان : تتحوا. وأقبل على فقال : والله لو بعثت إلى لسرت إليك ولم أجهشمك السعى إلى، فأشرح لى أمرى. فغلبتنى العبرة، وحالت بينى وبين الكلام. فمازال يسكننى حتى قصصت له إنفاق الوديعة. وهو مغموم بأمرى من ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت : ألف دينار. فضحك وقال : فرجت والله عنى ! ماتوسمت أنى أملكها، فكان الغم يقع بها ! فأما وهى فى القدرة فما

أسهلها على، وأخفها لدى؟ ثم قال لفلان: جئني بتلك الصرار التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر، فجاء بأربع صرار، فنظر فيما عليها وجمعه، وقال: هذه ألف وخمسمائة دينار، ألف للوديعة وخمسمائة يصلح بها ما بينك وبين من عندك. ثم قال لي: متى أشكر إفرادك إياي، بعد الله عز وجل ذكره، بتأميلي في حادثة حدثت عليك، فأعانني الله على مكافأتك؟  
وأضاف إلي من خفرتني إلى منزلي.

فقال الجماعة: قد سمعنا عنك وعلينا عهد الله إن لقيناه أبداً إلا قياماً<sup>(١)</sup>.

ونلمح من خلال القصة السابقة بعض السمات المعبرة عن الشخصية فبطل القصة كما صورته القاص رقيق الطبع مجيب لنداء زوجته، حريص على رضاها، وبهذه الروح يتسم الرجل المصري في علاقته مع زوجته والبطل وزوجته حريصان على بناء الأسرة، والكيان الأسرى مقدس في نظر الشخصية المصرية، والبطل رجل قوى العواطف تجيبه دموعه عندما أخذ يصور لصاحبه الموقف الحرج الذي وقع فيه.

ويسبغ المؤلف هذه الروح العاطفية على الشاب (علان بن المغيرة) الذي قصده الشيخ ليستبين منه، فقد تأثر بدموع الشيخ، وانطلق بسخاء يفتدق على الشيخ من ماله وعواطفه ليفرج كربته ويبلغ صدره.

والموقف الذي اتخذته البطل بعد أن أخبرته زوجته برفض زوج ابنتها موقف مصري، فلم ينكر وديعة صاحبه، ولم يعلن حرياً على زوج ابنته، ولكنه وضع الحل السلمي الذي يتمسك بكل الروابط والعلاقات الإنسانية، وهو مصري أصيل.

### الخطابة:

عندما بدأت مصر دورها في المشاركة الأدبية منذ عصر أحمد بن طولون كان سوق الخطابة العربية قد أوشك أن ينقض، إذ احتلت الكتابة مكان الصدارة في الاستعمال، وأصبحت الخطب تعد كتابة ثم تلقى. يقول "ابن عبد كان": لقد أمرني أحمد بن طولون يوماً بإنشاء كتاب يقرأ على المنبر فنشأته: ودفعته إلى محبوب بن رجاء ليقرأه، وفي رسالة ابن طولون إلى ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التي يحكمها كتباً تقرأ على المنابر

(١) كتاب المكافاة ص ٢٢.

فيها لعن العباس والبراعة منه ينقلها آخر عن أول، وتخلد في بطون الصحف وتحملها الركبان، ويتحدث بها في الأفاق (١) .

وعرف النثر العربي منذ الجاهلية أدب الرصايا، ولصر الفرعونية آثار عديدة في هذا الفن، بل إن جل أدبها الفرعوني أدب وعظ وحكم وتربية ووصايا، وكان من المتوقع أن يتطلع المصريون إلى بعث هذا الفن ونشره.

وكان بمصر الإسلامية أدب وصايا غايته التوجيه والإرشاد، والحث على كسب المحامد أو التبصير بحسن السياسة أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق (٢)

فإذا استعرضنا هذه الرصايا وجدناها تدور في محيط ضيق لا يتجاوز الخلفاء أو الأمراء أو الولاة. ومع ذلك فقد نجد إشارات قليلة تنبئ عن فهم بعض الحكام في مصر لبعض الجوانب السياسية في الشخصية المصرية فأحمد بن طولون ينصح ابنه "أبا الجيوش خمارويه" بقوله :

"وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب والأمن من المخاوف، ولم أكن أمنعهم لين جانبي بخلاً عليهم، ولكن أثرتك على نفسي، بمنعني لهم لين جانبي، ولأمن مخالفتي، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم، وبيادروا إلى طاعتك، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك في صغير أمرك وكبيره (٣) .

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح إلى زمن الفاطميين ، د . عبدالرازق حميدة ، ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) سيرة أحمد بن طولون البلوي ، ص ٢٣٩ .